باسم مناهضة الهجرة أصرّ بشراسة على أنّه لا يشعر بمسؤولية تجاه الفقر والأهوال في بلدان العالم الثالث وأنّه بدلاً من إنفاق الأموال على هذه البلدان، ينبغي لدولنا ألّا تتحمّل المسؤولية إلّا عن رفاهية مواطنيها. كانت فحوى إجابة غيسي: إذا لم نتحمّل مسؤولية فقراء العالم الثالث (ولم نعمل وفقاً لذلك)، فسيأتون إلينا هنا (هذا بطبيعة الحال وعلى وجه التحديد ما يرفضه بشراسة مناهضو الهجرة). يُعَدّ هذا الردّ رغم تهكمه ولا أخلاقيته كما قد يبدو مناسباً أكثر بكثير من الردّ الإنسانوي المجرّد. تناشد المقاربة الإنسانوية سخاءنا وإحساسنا بالذنب (”علينا أن نفتح قلوبنا لهم، ولا سيما أنّ السبب الرئيسي لمعاناتهم هو العنصرية الأوروبية والاستعمار“)، وغالباً ما تقترن هذه المناشدة بمنطق اقتصادي غريب (”تحتاج أوروبا إلى المهاجرين كي تواصل توسّعها على الصعيد الاقتصادي“) وبخطاب منمق بشأن السكّان أكثر ملاءمة لليمين (”معدلات الولادة الخاصة بنا تتهاوى، إنّنا نفقد حيويتنا“). الرهانات الخفية لهذه العملية واضحة: دعونا نتعامل بانفتاح مع المهاجرين... لكن كتدبير منفصل فحسب لتجنّب التغيير الجذري الذي نحتاج إليه فعلاً وللإبقاء على نظامنا الرأسمالي الليبرالي. أمّا المنطق الذي يدعم إجابة غيسي، فهو النقيض تماماً: التغيير الاقتصادي الاجتماعي الجذري هو الوحيد القادر فعلاً على حماية هويتنا، نمط حياتنا.

41 متاح على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=bM0AIh3buig من أعراض الشخصية ”اليسارية العالمية“ السائدة كيفية رفضها أيّ حديث عن ”نمط حياتنا“ أو التباينات الثقافية بوصفها موقفاً من مواقف هنتنغتون Huntington الرجعية، يحجب الهوية الأساسية (أو بالأحرى يهدمها) لكلّ شخص في الرأسمالية العالمية، ويطالبنا في الوقت عينه باحترام الهويات الثقافية الخاصّة بالمهاجرين، أي بألّا نفرض عليها معاييرنا الثقافية. يتمثّل اللوم المقابل الواضح في عدم تماثل ”نمطنا“ ”ونمطهم“ في الحياة ما دام نمطنا هو المهيمن. هذا رأيٌ وجيه لكنّه يتجنّب جوهر المشكلة: الطابع العمومي في النضال من أجل التحرّر. صحيح أنّ اللاجئ من أوجه عدّة ”جارٌ“ بامتياز، جارٌ بالمعنى الحرفي الوارد في **الكتاب المقدّس**: الآخر مختزلاً بحضوره العاري. يمثّل اللاجئون، مجرّدين من ممتلكاتهم وبيوتهم ومواقعهم المحدّدة في المجتمع، عموميةَ أن يكون المرء إنساناً، إذ يشير مدى ارتباطنا بهم إلى مدى ارتباطنا بالإنسانية. فهم لا يختلفون عنّا بمعنى أنّ الجماعات كافّة يختلف بعضها عن بعض؛ إنّهم بمعنىً ما يشكّلون الاختلاف بوصفه كذلك. لكنّ العمومية والخصوصية تتطابقان هنا بطريقة هيغلية صحيحة. إذ إنّ اللاجئين يأتون عُراة مادياً فحسب، ولهذا، يبدون لنا أكثر تشبّثاً بهويتهم الثقافية. يُنظر إليهم بوصفهم عالميين بلا جذور، ولكن بوصفهم في الوقت عينه عالقين في هويتهم الخاصة.

المهاجرون المترحّلون ليسوا بروليتاريين رغم مزاعم آلان باديو Alain Badiou وآخرين بأنّ ”البروليتاري المترحّل“ هو الشخصية النموذجية للبروليتاريا في وقتنا الحاليّ. ما يجعل البروليتاريين بروليتاريين هو حقيقة أنّهم مُستغَلّون، وأنّهم العنصر الحاسم في تحديد سعر رأس المال، فعملهم يخلق فائض القيمة. ومن الواضح أنّ هذا الأمر يتعارض مع اللاجئين المترحّلين الذين لا يُنظر إليهم بوصفهم عديمي القيمة فحسب، بل ”عديمي القيمة“ حرفياً بوصفهم بقية الرأسمال العالمي العديم القيمة: غالبيتهم لا تُدرَج في عملية وضع سعرٍ لرأس المال. يحلم اليساريون والرأسماليون على حد سواء بموجة

جديدة من اللاجئين تُدمَج في الماكينة الرأسمالية كما حدث في ستينيات القرن العشرين في ألمانيا ثمّ في فرنسا، ويبررون ذلك بأنّ "أوروبا تحتاج إلى المهاجرين". لكنّ الأمر لا يصلح هذه المرّة إذ لم يندمج المهاجرون اجتماعياً إلى حدّ بعيد ولا يزال معظمهم "دخلاء". تضفي هذه الحقيقة مزيداً من المأسوية على وضع اللاجئين المهاجرين العالقين في حالة إهمال اجتماعي، وهو مأزق تعرض الأصولية مَخرجاً زائفاً منه. وفي ما يتعلّق بحركة رأس المال العالمي، يوضع اللاجئون في موقع فائض الإنسانية، وهو صورة طبق الأصل عن فائض القيمة، وليس في وسع أيّ مساعدة إنسانية أو انفتاح أنّ تجد حلاً لهذا التوتّر؛ لن يفي بالغرض إلّا إعادة هيكلة الصرح الدولي بأسره.

أمّا بالنسبة إلى الليبراليين اليساريين، فيُنظر إلى الحجّة الداعية إلى تغيير الوضع في بلدان العالم الثالث من أجل إزالة ظروف الفقر والحرب التي يهرب منها اللاجئون بصفتها ذريعة ماكرة (إلى حدٍّ ما) لمنع المهاجرين من القدوم إلى بلداننا. الردّ على هذا الطرح واضح: على نحو متماثل تماماً، يُعَدّ "فتح قلوبنا" للاجئين طريقة ماكرة (إلى حدٍّ ما) لعدم فعل أيّ شيء لتغيير الوضع العالمي الذي يؤدّي إلى وجودهم.

إنّ زيف الإنسانوية هو الزيف عينه الذي نجده في رفض نزعة مركزية الإنسان (anthropocentrism) التي ينادي بها علم البيئة المتقدّم، فثمّة رياء متقدّم فيها. كلّ الحديث بشأن كيف أنّنا (البشرية) نشكّل تهديداً للحياة بأسرها على الأرض هو في الحقيقة مجرّد قلق على مصيرنا. فالأرض في حدّ ذاتها غير مبالية. وحتّى لو دمّرنا الحياة بأسرها على الأرض، فلن يكون ذلك سوى كارثة من الكوارث التي تصيبها ولن تكون الأكبر. عندما نقلق بشأن البيئة، نحن نقلق بشأن بيئتنا الخاصّة. نريد أن نضمن نوعية حياتنا وسلامتها. أمّا أنصار علم البيئة المتقدّم الذين يطرحون أنفسهم كممثّلين للكائنات الحية كافّة، فيشغلون موقعاً زائفاً مشابهاً لموقع الليبراليين المناهضين للمركزية الأوروبية البيضاء الذين يحتفظون لأنفسهم بموقع العالمية في حين يرفضون بلا هوادة هويتهم الثقافية ويطلبون من "الآخرين" التمسّك بهوياتهم.

الدرس العام الذي ينبغي تعلّمه هنا هو أنّ على المرء أن يتجنّب بأيّ ثمن الاستسلام للعاطفة الإنسانوية الرخيصة لمن يُعَدّون مسحوقين. لهذا السبب وحده، يستحق فيلم Parasite [المتطفّل] (كوريا 2019، إخراج بونغ جوون هو Bong Joon–ho) المشاهدة. ما يتجنّبه الفيلم هو أيّ مثلَنة وعظية للمسحوقين بأسلوب المخرج فرانك كابرا Frank Capra. لا بدّ أن نعارض هنا المحتوى والشكل: على مستوى المحتوى، لا شكّ في أنّ عائلة بارك التي تنتمي إلى الطبقة العليا متفوقة أخلاقياً، فهي مراعية لمشاعر الآخرين ومتعاطفة ومفيدة بينما يتصرّف المستضعفون فعلياً مثل الطفيليات: يتطفلون ويتلاعبون ويستغلون... لكنّ عائلة بارك، على مستوى الشكل، من أصحاب الامتيازات الذين يستطيعون تحمل تكاليف رعاية الآخرين ومساعدتهم، بينما تدفع

المستضعفين ظروفُهم المادية نحو تصرّفات لا تتّسم بالدماثة. ينطبق الأمر عينه على الشكوى الشائعة المناهضة للنسوية على ألسنة الرجال: ”أعامل النساء برقة وطريقة غير متسلّطة لكنهنّ عدوانيات بشدّة تجاهي...“، من المؤكّد أنهنّ عدوانيات ما دامت العدوانية غالباً ما تكون الطريقة الوحيدة من وجهة نظرهنّ لمواجهة خضوعهنّ السابق. وكقاعدة عامّة، ليس في وسع أحدٍ غير أولئك الذين في القمة تقديم اللطف والتعاطف.

إذاً الحلّ لا يكمن في لعب لعبة الإنسانية، بل بالأحرى في تغيير الوضع الذي تقتضيه الإنسانوية في المقام الأول. كما عبّر عنه أوسكار وايلد Oscar Wilde في مقالته “The Soul of Man under Socialism” [روح الإنسان في ظلّ الاشتراكية]: يجدون (الناس) أنفسهم محاطين بفقر فاحش، بقبح فاحش، بجوع فاحش. من المحتّم أن يؤثر فيهم ذلك كلّه بقوّة. وبناء على ذلك سيضعون لأنفسهم بجدّية وعاطفية بالغتين، وبنيّات مثيرة للإعجاب، رغم أنّها مضلّلة، مهمة معالجة الشرور التي يشاهدونها. لكنّ علاجاتهم لا تشفي المرض. إنّها تطيل أمده فحسب. حقيقة الأمر أنّ علاجاتهم جزء من المرض. فهم يحاولون حلّ مشكلة الفقر مثلاً بإبقاء الفقراء على قيد الحياة أو بتسلية الفقراء في حالة انتمائهم إلى المدرسة المتقدّمة جداً. لكنّ ذلك ليس حلّاً. إنّه مفاقمة للصعوبة. يتمثّل الهدف الصحيح في اختبار المجتمع وإعادة بنائه على أساس أنّ الفقر سيكون مستحيلاً. وقد حالت فضائل الإيثار في الواقع دون تحقيق هذا الهدف.[42]

42 Oscar Wilde, “The Soul of Man under Socialism,” (1891), https://www.marxists.org/reference/archive/wilde-oscar/soul-man/

Mattha Busby, “Schools in England Told Not to Use Anti-Capitalist Material in Teaching,” 52 MSN, September 27, 2020, https://www.msn.com/en-gb/news/uknews/schools-in-england-told-not-to-use-anti-capitalist-material-in-teaching/ar-BB19t30k كتب جان بول سارتر Jean–Paul Sartre أنّه إن هاجمك طرفا نزاع سياسي بسبب النصّ عينه، فهي واحدة من علامات قليلة بأنّك على الدرب الصحيح. هوجمتُ في العقود الأخيرة (غالباً بسبب النصّ عينه) بتهمة معاداة السامية، وصولاً إلى الدعوة إلى محرقة جديدة، وبسبب الدعاية الصهيونية الغادرة (انظر مقالة أندرو جويس Andrew Joyce في تشرين الثاني/ نوفمبر 2019 في المجلة الإلكترونية (Occidental Observer)[53]. لذا أعتقد أنّ لديّ الحقّ بالتعليق على الاتهامات الموجّهة إلى ”العمال“ وكوربين بشأن تساهلهما المزعوم مع معاداة السامية.

Andrew Joyce, “Slavoj Žižek‘s Pervert‘s Guide to anti-Semitism,” *Occidental Observer*, 53 November 20, 2019, https://www.theoccidentalobserver.net/20/11/2019/Slavoj-Žižek-perverts-/guide-to-anti-semitism

أرفض قطعياً معاداة السامية بأشكالها كافّة، ومن ضمنها الفكرة القائلة إنّ في مستطاع المرء ”تفهّمها“ أحياناً (كما في ”بالنظر لأفعال إسرائيل في الضفة، ينبغي ألّا يتفاجأ المرء إذا تمخّضت عن ردود فعل معادية للسامية“). ولأكون أكثر تحديداً، أرفض النسختين المتناظرتين للحجّة الأخيرة: ”لا بدّ أن نتفهّم معاداة الفلسطينيين العرضية للسامية ما دام الفلسطينيون يعانون كثيراً“، وكذلك ”لا بدّ أن نتفهّم الصهيونية العدوانية في ضوء المحرقة اليهودية“ (ينبغي للمرء أيضاً أن يرفض النسخة التوفيقية: ”كلا الطرفين لديه وجهة نظر عليه توضيحها، فدعونا نجد طريقاً وسطاً...“).

على المنوال عينه، يجب علينا أن نكمل وجهة النظر الإسرائيلية المعتادة بأنّ النقد (المسموح به) للسياسة الإسرائيلية يمكن أن يفيد كغطاء لمعاداة السامية (غير المقبولة) مع نقيضها الذي لا يقلّ وجاهة: غالباً ما تُستحضر تهمة معاداة السامية لتشويه سمعة الانتقادات المبرّرة تماماً للسياسات الإسرائيلية. أين بالضبط يتحوّل نقد السياسة الإسرائيلية المشروع إلى معاداة للسامية؟ يُدانِ على نحو متزايد التعاطف المكشوف مع المقاومة الفلسطينية بوصفه معادياً للسامية. لنأخذ حالة ”حلّ الدولتين“: مثّل هذا الحلّ قبل عقود موقفاً دولياً موحَّداً ورد في بيانات كثيرة، في حين يتزايد الإعلان حالياً بأنّه يُمثّل تهديداً لوجود إسرائيل وهو في النتيجة مُعادٍ للسامية.

أمّا من وجهة نظري، فالمَخرج الوحيد من هذه المعضلة هو المَخرج الأخلاقي. ليس هنالك تعارض في نهاية المطاف بين مكافحة معاداة السامية ومكافحة ما تفعله دولة إسرائيل في الضفة. فكلا الكفاحين جزء من الكفاح عينه في سبيل التحرّر. لنذكر حالة ملموسة. في تشرين الثاني/ نوفمبر 2019، اعتذرت زارا سلطانة Zarah Sultana، مرشّحة ”العمال“، عن منشور في Facebook أيّدت فيه حقّ الفلسطينيين ”بالمقاومة العنفية“، قائلة: ”لست ممّن يؤيدون العنف ولم يكن عليّ الإعراب عن غضبي بالطريقة التي فعلت، والتي أعتذر عنها“[54]. أدعم اعتذارها بالكامل، إذ ينبغي ألّا نلعب بالعنف، لكنّني أجد

نفسي ملزماً رغم ذلك أن أضيف أنّ ما تفعله إسرائيل حالياً في الضفة يتّسم بالعنف (رغم ذلك، من المؤكد أنّ إسرائيل ترغب في السلام في الضفة؛ يرغب المحتلون بحكم التعريف في السلام في الأرض المحتلة، ما دام ذلك يعني عدم وجود مقاومة...). إذا تعرّض اليهود في المملكة المتحدة لأيّ شكل من التهديد، فسأدينه من دون قيد أو شرط وقطعاً وأساند كلّ الإجراءات القانونية للتصدي له، ولكن هل يُسمح لي أن أضيف أنّ الفلسطينيين في الضفة يواجهون تهديداً أكبر بكثير من ذلك التهديد الذي يتعرّض له اليهود في المملكة المتحدة؟

Labour Coventry South Candidate Zarah Sultana Apologises For ‘Celebrate Deaths’ Post,“” [54] BBC, November 4, 2019, https://www.bbc.co.uk/news/uk-england-coventry-warwickshire-50292235

اليوم، تُلصق تهمة معاداة السامية أكثر فأكثر بأيّ شخص يحيد عن المؤسّسة الليبرالية اليسارية المقبولة نحو موقف يساري أكثر راديكالية. من دون تسمية كوربين، كتب إفرايم ميرفيس Ephraim Mirvis، الحاخام الأكبر في المملكة المتحدة، في تشرين الثاني/ نوفمبر 2019، مقالة لصحيفة *The Times*، وذكر فيها أنّ ”سمّاً جديداً، يقاطعه من هم في أعلى الهرم، قد تجذّر في ‘العمال’“[55]. ثمّ اعترف: ”ليس من شأني أن أخبر أيّ شخص بالكيفية التي عليه أن يصوّت فيها“، وتابع: ”عندما يأتي يوم 12 كانون الأول/ ديسمبر، أطلب من الجميع أن يصوّتوا بما تمليه عليهم ضمائرهم. لنكن على يقين أنّ روح أمتنا ستكون على المحك“. أجد هذا الأسلوب في تقديم خيار سياسي كخيار أخلاقي محض مثيراً للغثيان على الصعيد الأخلاقي؛ هو يذكّرني بأنّ الكنيسة الكاثوليكية في إيطاليا امتنعت منذ عقود عن أمر المواطنين صراحة بالتصويت للحزب ”الديموقراطي المسيحي“، لكنّها قالت فحسب إنّ عليهم التصويت لحزب مسيحي وديموقراطي...

Ephraim Mirvis, “What Will Become of Jews in Britain if Labour Forms the Next [55] Government?”, *The Times*, November 25, 2019, https://www.thetimes.co.uk/article/ephraim-mirvis-what-will-become-of-jews-in-britain-if-labour-forms-thenext-government-ghpsdbljk أمّا اليوم، فسياسة الاختيار الراديكالي هي السياسة المبدئية الوحيدة: علينا أن نحدّد خيارنا عندما يكون الخيار ضرورياً وأن نرفضه عندما يكون الخيار زائفاً. علينا اليوم أن نرفض بحزم استغلال الصهيونية السياسي الذي يدين كلّ تعاطف مع الفلسطينيين بوصفه معادياً للسامية، تماماً مثلما علينا أن نرفض دون هوادة الإرهاب الإسلاموي الذي تجلّى في الهجمات الدموية الأخيرة في باريس ونيس. ما من خيار هنا، وما من قياس صائب ما بين الحدّين الأقصيين. وكما كان ستالين سيعبّر عن ذلك، كلاهما أسوأ. اتّخاذ كوربين موقفاً مبدئياً كذاك الموقف هو السبب الحقيقي وراء إسقاطه.

Caitlin Dickson, "'A Global Conspiracy against God and Humanity': Controversial Catholic Archbishop Pushes QAnon Themes in Letter to Trump," Yahoo, October 31, 2020, https://www.yahoo.com/news/a-global-conspiracy-against-god-and-humanity-controversial-catholic-archbishop-pushes-q-anon-themes-in-letter-to-trump-134003985.html 57

يسهل القفز إلى العنف من مثل هذا المنظور. كشف مكتب التحقيقات الفيدرالي في تشرين الأول/ أكتوبر 2020 أنّ مجموعة ميليشيا يمينية خطّطت لاختطاف غريتشن ويتمر Gretchen Whitmer حاكمة ولاية ميشيغان من بيتها وأخذها إلى مكان آمن في ولاية ويسكونسن حيث ستخضع لنوع من "محاكمة" الشعب بسبب "خيانتها".[58] فرضت ويتمر بوصفها حاكمة تقييدات صارمة لكبح إصابات كورونا، وقد انتهكت بذلك، وفقاً لمجموعة الميليشيا، الحريات التي يكفلها دستور الولايات المتحدة. ألا تذكّرنا هذه الخطة بأشهر الاختطافات السياسية في أوروبا؟ في 1978، اختطفت منظّمة "الألوية الحمراء" شخصية رئيسية من شخصيات المؤسّسة السياسية الإيطالية ذكرت إمكانية تشكيل تحالف واسع بين "الديموقراطيين المسيحيين" و"الحزب الشيوعي"، ثمّ قدّمتها إلى المحاكمة في محكمة الشعب وقُتلت رمياً بالرصاص...

Derick Hutchinson, "FBI: Group Plotting to Kidnap Michigan Gov. Whitmer Wanted to Take Her to Wisconsin for 'Trial'," ClickOnDetroit, October 8, 2020, https://www.clickondetroit.com/news/local/2020/10/08/fbi-group-plotting-to-kidnap-michigan-gov-/whitmer-wanted-to-take-her-to-wisconsin-for-trial 58

كانت أنجيلا ناغل Angela Nagle محقّة في محاجّتها أنّ اليمين الشعبوي الجديد يتولّى الأساليب التي نُسبت بوضوحٍ قبل عقود إلى جماعات اليسار المتطرّف "الإرهابية".[59] بطبيعة الحال، لا يتضمّن هذا إطلاقاً أنّ كلا "الطرفين الأقصويين" متطابقان بطريقة ما؛ ليس لدينا مركز ثابت يحيط به بشكل متناظر كلا الطرفين الأقصويين. العداء الأساسي هو عداء بين المؤسّسة واليسار، و"التطرّف" العنفي اليميني هو ردّ فعل مذعور ناجم عن تعرّض المركز للتهديد. بدا هذا الأمر واضحاً في المناظرة الرئاسية الأخيرة، عندما اتهم ترامب بايدن بدعم قانون "الرعاية الطبية للجميع" قائلاً إنّ "بايدن يتفق مع ساندرز" وردّ بايدن: "لقد هزمتُ بيرني ساندرز".[60] كانت الرسالة من هذا الردّ واضحة: بايدن هو ترامب بوجه إنساني. ورغم تعارضهما، فعدوهما واحد. تلكم هي الانتهازية الليبرالية في أسوأ حالاتها: نبذ "المتطرّفين" اليساريين خشية إخافة المركز.

.Angela Nagle, *Kill All Normies* (New York: Zero Books, 2017) 59

Peter Sullivan, "Trump, Biden Clash over Health Care as Debate Begins," the *Hill*, 29 September, 2020, https://thehill.com/policy/healthcare/518863-trump-biden-clash-over-lawsuit-against-obamacare-as-debate-begins 60

ليست الولايات المتحدة وحدها من تتحرّك في هذا الاتجاه. لنلقِ حسب نظرة على القصص الأساسية في الإعلام الغربي: في بولندا، تشتكي الشخصيات العامّة الليبرالية من أنّها أصبحت متفرجة على تفكيك الديموقراطية، وكذلك الحال في المجر... حتّى على مستوىً أعم، إنّ توتّراً معيناً يلازم جوهر مفهوم الديموقراطية البرلمانية يتبوأ اليوم مكانة بارزة. تعني الديموقراطية أمرين: "سلطة الشعب"، أو الفكرة القائلة: ينبغي أن تعبّر الإرادة الأساسية للغالبية عن نفسها في الدولة، والثقة بالآلية الانتخابية، كي لا يهمّ مدى التلاعبات الكثيرة والأكاذيب ما دامت الأرقام المحتسبة تحدّد النتيجة التي ينبغي للأطراف كافّة قبولها. هكذا، اعترف آل غور Al Gore بالهزيمة أمام بوش رغم أنّ غالبية الناس صوّتت له وأنّ عدّ الأصوات في فلوريدا اتّسم بإشكاليةٍ كبيرة، فالثقة بالإجراء الرسمي هي ما يِمنح الديموقراطية البرلمانية استقرارها. تنشأ المشكلات عندما يبتعد هذان

البُعدان عن التزامن، وغالباً ما يطالب اليمين واليسار في آنٍ بضرورة أن تسود إرادة الشعب الأساسية على الشكليات الانتخابية. وهما محقّان بمعنىً ما، إذ إنّ آلية التمثيل الديموقراطي ليست حيادية في الواقع. كما يكتب آلان باديو: ”إذا كانت الديموقراطية شكلاً من التمثيل، فهي تمثّل في المقام الأول النظام العام الذي يديم شكلها. بعبارة أخرى: الديموقراطية الانتخابية هي تمثيلية ما دامت أوّلاً تمثيلاً توافقياً للرأسمالية التي تُطلق عليها اليوم تسمية ‘اقتصاد السوق’“[61].

[61] Alain Badiou, *De quoi Sarkozy est-il le nom?* (Paris: Editions Lignes, 2007), p. 42.

ينبغي أخذ هذه السطور بالمعنى الرسمي حرفيّاً: ”تمثّل“ (تعكس، تُسجّل، تقيس) الديموقراطية الليبرالية المتعدّدة الأحزاب على المستوى التجريبي بطبيعة الحال التوزّع الكمي لآراء الناس المختلفة، وما الذي يفكّرون فيه بشأن البرامج التي تقترحها الأحزاب السياسية ومرشحيهم وما شابه. غير أنّ ما يسبق هذا المستوى التجريبي وبمعنىً مسرف في الراديكالية هو أنّ جوهر شكل الديموقراطية الليبرالية المتعدّدة الأحزاب ”يمثّل“، يماثل، رؤية محدّدة للمجتمع والسياسة ولدور الأفراد فيها، إذ تُنظِّم السياسة ضمن الأحزاب التي تتنافس بالانتخابات لفرض سيطرتها على أجهزة الدولة التشريعية والتنفيذية. على المرء أن يكون على دراية دائماً أنّ هذا الإطار ليس حيادياً إطلاقاً، فهو يمنح امتيازات لقيم وممارسات بعينها.

تصبح هذه اللاحيادية في لحظات الأزمة أو قلة المبالاة ملموسة، عندما نختبر عجز النظام الديموقراطي عن تسجيل ما يريده الناس أو يفكرون فيه بفعّالية. تدلّ على هذا العجز ظواهر غير مألوفة مثل انتخابات المملكة المتحدة في 2005، حين لم تكن هنالك طريقة، رغم تنامي عدم شعبية طوني بلير Tony Blair (اختير على رأس قائمة الأشخاص الذين لا يحظون بالشعبية)، كي يجد هذا الاستياء تعبيراً فعّالاً على الصعيد السياسي. من الواضح أنّ هنالك ما هو خطأ للغاية هنا، ولم يكن ذلك أنّ الناس ”لم يكونوا يعرفون ماذا يريدون“، بل بالأحرى أنّ تسليماً تهكمياً منعهم من التصرّف بناء على معرفتهم، فكانت النتيجة فجوة غريبة بين ما يفكّر فيه الناس وكيفية تصرّفهم (تصويتهم).

منذ عامٍ أو نحوه، اتّسعت الفجوة عينها اتّساعاً كبيراً مع صعود ”السترات الصفراء“ في فرنسا. عبّرت الاحتجاجات بوضوح عن تجربة كان محالاً ترجمتها إلى أحكام سياسات التمثيل المؤسّسي أو تضمينها فيها، وهذا السبب في أنّ تجربتهم النوعية تبخّرت حين دعا ماكرون ممثليهم إلى حوار وتحدّاهم أن يصوغوا شكاواهم في برنامج سياسي واضح. ألم يحدث الأمر عينه مع حركة Podemos [قادرون] في إسبانيا؟ ففي اللحظة التي وافقوا فيها على ممارسة السياسات الحزبية والالتحاق بالحكومة، لم يعد ممكناً تقريباً تمييزهم عن الحزب الاشتراكي. تلك علامة أخرى على أنّ الديموقراطية التمثيلية لا تفلح بالعمل كما يجب.

موجز القول: استمرت أزمة الديموقراطية الليبرالية لأكثر من عقد غير أنّ جائحة كورونا جعلتها تتجاوز في انفجارها حدّاً معيناً. تتقوّض اليوم أكثر فأكثر

المقوّمات الأساسية للديموقراطية الفعّالة. وخير من عبّر عن الثقة التي تعتمد عليها الديموقراطية هو لينكولن Lincoln في قوله الشهير: ”تستطيع أن تخدع الناس جميعاً بعض الوقت، وبعضهم كلّ الوقت، لكنّك لا تستطيع أن تخدعهم جميعاً كلّ الوقت“. دعونا نُضفي انعطافاً أكثر تشاؤماً على هذا القول: لا تعيش الغالبية الحقيقة إلّا في لحظات استثنائية نادرة، فهي تعيش اللاحقيقة معظم الوقت في حين أنّ أقلية فقط تُدرك الحقيقة. الحلّ لا يوجد بالتأكيد في ضرب من ضروب ديموقراطية أكثر ”حقيقيةً“ وأكثر شمولاً للأقليات كافّة؛ سيتعيّن على إطار الديموقراطية الليبرالية نفسه أن يُترك، وهذا تحديداً أكثر ما يخشاه الليبراليون. كذلك، لا يكمن الحلّ في أنّ المجتمع المدني المنظّم ذاتياً والمعبّأ بطريقة ما (مثل ”قادرون“ و”السترات الصفراء“) سيسيطر مباشرة على الدولة ويستبدلها. حُكم الجموع المباشر ليس سوى وهم، ولا بدّ بصفة عامّة من أن يستديم في جهاز دولة قوي. إنّ الدرب إلى تغيير حقيقي لا ينفتح إلّا عندما نفقد الأمل من حدوث تغيير داخل النظام. إن كان ذلك يبدو ”راديكالياً“ بإفراط، فلنتذكّر أنّ رأسماليتنا اليوم تتغيّر بالفعل، وإن كان بالاتجاه المعاكس.

العنف المباشر لا يُعَدّ بصفة عامّة ثورياً بل رجعياً، ردّ فعلٍ على التهديد بتغيّر أساسيٍّ أكثر. فعندما يكون النظام في أزمة، يبدأ خرق قواعده. قالت حنة أرندت Hannah Arendt إنّ اندلاع أعمال العنف ليس عموماً السبب الذي يغيّر مجتمعاً ما، إنّما بالأحرى آلام مخاض مجتمع جديد في مجتمع قضى نحبه بسبب تناقضاته الخاصة. لنتذكّر أنّ أرندت تورد ذلك في معرض سجالها مع ماو الذي قال إنّ ”السلطة تنبثق من فوهة البندقية“، ووصفت هذا الموقف بأنّه اعتقاد ”لا يمتّ بصلة للماركسية إطلاقاً“ وزعمت أنّ الانفجارات العنفية من وجهة نظر ماركس تشبه ”آلام المخاض التي تسبق الولادة الطبيعية لكنّها بالطبع لا تتسبّب فيها“. أتفق معها مبدئياً، لكنّني سأضيف أنّ انتقالاً ”ديموقراطياً“ سلمياً بالكامل للسلطة لا يمكن أن يحدث من دون ”آلام مخاض“ العنف؛ ستكون هنالك دوماً لحظات من التوتّر عندما تُعلَّق قواعد الإجراءات الديموقراطية.

غير أنّ عامل هذا التوتّر اليوم هو اليمين. وهذا السبب في أنّ المهمة الملقاة على عاتق اليسار، لسخرية التاريخ، هي الآن كما أشارت ألكسندريا أوكاسيو كورتيز Alexandria Ocasio–Cortez إنقاذ ديموقراطيتنا ”البرجوازية“ عندما يكون المركز الليبرالي متردّداً وأضعف من أن يفعل ذلك. أيتعارض هذا مع حقيقة أنّ على اليسار اليوم تجاوز الديموقراطية البرلمانية؟ لا. وكما يبيّن ترامب، يكمن التناقض في صُلب هذا الشكل الديموقراطي نفسه إذ إنّ السبيل الوحيد لإنقاذ ما يستحق الإنقاذ في الديموقراطية الليبرالية هو تجاوزها. والعكس بالعكس: عندما يأخذ العنف اليميني بالتصاعد، فالطريقة الوحيدة لتجاوز الديموقراطية الليبرالية هي في أن نكون مخلصين لها أكثر من الديمِوقراطيين الليبراليين أنفسهم. ذلكم هو ما مثّلته العودة الديموقراطية

الموفّقة لحزب موراليس إلى السلطة في بوليفيا. وهي تشير بوضوح إلى إحدى النقاط المضيئة القليلة في مشهدنا المقفر.

نستطيع الإبقاء على المجال مفتوحاَ أمام حريات جديدة قادمة إلّا عن طريق المرور بنقطة بدايةٍ تتمثّل في ”شيوعية زمن الحرب“. إذا تمسّكنا بأسلوب عيشنا القديم، فستكون نهاية مطافنا بالتأكيد في بربرية جديدة. ليس في إمكاننا إيجاد مَخرج إلّا إذا اعترفنا بأنّ الوضع ميؤوس منه إذا بقينا داخل النظام العالمي القائم.

(لواقعك الماديّ) إذ يبقى ”تصوّرك“ على قيد الحياة بطريقة سامية (مثلاً، قتل عدو بطريقة يبقى فيها حياً في أذهان الآلاف بوصفه بطلاً). على هذا النحو، يتعيّن علينا أن نتعامل مع النازية: ينبغي ألّا ندمّر هتلر فحسب (التخلّص من ”تجاوزاته“ والإبقاء على الجوهر العقلي لمشروعه)، بل أن نقتله بتصوره. ينطبق الأمر عينه على ترامب وإرثه. ليست المهمّة الحقيقية هزيمته (فتح إمكانية أنّه سيعود في 2024) فحسب، بل ”قتله بتصورّه“، أي جعله بادياً للعيان بكلّ غروره وتقلّبه التافهين، وكذلك طرح سؤال (هذا هو الجزء الحاسم): كيف استطاع شخص بمثل تفاهته أن يصير رئيساً للولايات المتحدة. ومثلما كان هيغل سيعبّر، قتل ترامب بتصوّره يعني إحضاره لتصوّره، أي السماح له بتدمير نفسه ببساطة عبر جعله بادياً للعيان على حقيقته.

13642491.html النص الأصلي: ”verbreitet sich jetzt existentielle Unsicherheit global und gleichzeitig, und zwar in den Köpfen der medial vernetzten Individuen selbst... So viel Wissen über unser Nichtwissen und über den Zwang, unter Unsicherheit handeln und leben zu müssen, gab es noch nie“.

عندما نحاول أن نخمّن ما ستبدو عليه مجتمعاتنا بعد انتهاء الجائحة، فالفخّ الذي لا بدّ أن نتحاشاه هو علم المستقبل الذي يتجاهل – بحكم تعريفه – عدم معرفتنا. يُعرَّف علم المستقبل بأنّه تنبؤٌ منهجيٌّ بالمستقبل يستقرئ الاتجاهات الحالية في المجتمع، وهنا تكمن المشكلة. فما لا يأخذه علم المستقبل بالحسبان هو ”المعجزات“ التاريخية، ضروب القطيعة الجذرية التي لا يمكن تفسيرها إلّا بأثرٍ رجعيّ بعد حدوثها. ربما علينا هنا حشد التمييز الذي يُستخدم باللغة الفرنسية بين لفظتَي futur وavenir، فالأولى تعني ما سيأتي بعد الحاضر أيّاً يكن، في حين تشير الثانية إلى تغيّر جذريّ. عندما يفوز أحد الرؤساء بإعادة انتخابه، هو ”الرئيس في الحاضر والمستقبل“، لكنّه ليس الرئيس الذي سوف ”يأتي“؛ الرئيس الآتي رئيس آخر. إذن، هل سيكون ما بعد كورونا مجرّد مستقبل آخر أم شيئاً جديداً سوف ”يأتي“؟

الأمر لا يتوقف على العلم فحسب، بل على قراراتنا السياسية أيضاً. حان الوقت الآن للقول إنّه ينبغي ألّا تكون لدينا أوهام بشأن النتيجة ”السعيدة“ لانتخابات الولايات المتحدة التي بعثت الارتياح في نفوس الليبراليين في أرجاء العالم كافّة. يروي فيلم They Live [إنّهم يعيشون] (1988) – وهو أحد روائع يسار هوليوود المهملة، للمخرج جون كاربنتر John Carpenter – قصة جون نادا John Nada (تعني نادا بالإسبانية ”نكرة“)، وهو عامل بلا مأوىً عثر بالمصادفة على كومة من العلب المليئة بالنظارات الشمسية في كنيسة مهجورة. عندما ارتدى إحدى هذه النظارات وهو يمشي في أحد الشوارع لاحظ أنّ لوحة إعلانية ملوّنة تحثّنا على التمتّع بألواح الشوكولا لا تعرض الآن إلّا كلمة ”امتثِل“، في حين أنّ لوحة أخرى تعرض زوجين ساحرين يتعانقان بشدّة، ويظهران بواسطة النظارة وهما يأمران المُشاهد بأن ”يتزوج وينجب“. ثم إنه يشاهد ورقة نقدية تحمل الكلمات التالية: ”هذا هو ربّنا“. فضلاً عن ذلك، سرعان ما يكتشف أنّ كثيراً من الناس الذين يبدون وسيمين هم في الحقيقة كائنات فضائية قبيحة لها رؤوس معدنية... هنالك صورة متداولة حالياً على الشبكة العنكبوتية تعيد عرض هذا المشهد من الفيلم تضمّ بايدن وهاريس. تُظهرهما الصورة، برؤية مباشرة، مبتسمَين مع رسالة تقول: ”حان وقت التعافي“، لكنّهما يظهران بواسطة النظارات كوحشين فضائيَّين مع رسالة تقول: ”حان وقت الجحيم“...

هذه الصورة هي بالطبع جزءٌ من حملة ترامب الدعائية لتشويه سمعة بايدن وهاريس بوصفهما أُلعوبَتين بأيدي ماكينات شركات مجهولة الهوية تتحكّم في حيواتنا، لكن هنالك (أكثر من) قدر ضئيل من الحقيقة فيها. انتصار بايدن يعني مستقبلاً متواصلاً مع ”الوضع الطبيعيّ“ لحقبة ما قبل ترامب، ولهذا كانِ هنالك

تنفسٌ للصعداء بعد فوزه. لكنّ هذا "الوضع الطبيعيّ" يعني حُكم الرأسمال العالميّ المجهول الهوية، وهو الدخيل الحقيقيّ بيننا. أذكر من أيام شبابي الرغبة في "اشتراكية بوجه إنسانيّ" في مواجهة اشتراكية النمط السوفياتيّ "البيروقراطية". أمّا اليوم، فبايدن يَعِد برأسمالية عالمية بوجه إنسانيّ، في حين سيظلّ الواقع عينه جاثماً وراء هذا الوجه. يتّخذ هذا "الوجه الإنسانيّ" في ميدان التعليم صورةَ هوسٍ "بالرفاهية"، ينبغي للطلاب وفقاً له أن يعيشوا في فقاعات تحميهم من أهوالِ الواقع الخارجيّ وتصونها القواعد الصائبة سياسياً. لم يعد المقصود من التعليم أن يكون له تأثيرٌ واقعيٌّ يتيح لنا مواجهة الواقع الاجتماعيّ. وحين يقال لنا إنّ هذا الأمان سيمنع الانهيارات العقلية، علينا مواجهته بقول معاكس تماماً: مثل هذا الأمان الزائف يجعلنا عُرضةً للأزمات العقلية عندما يتعيّن علينا في نهاية المطاف مواجهة واقعنا الاجتماعيّ. ما يفعله هذا التركيز على "الرفاهية" هو مجرّد تقديم "وجه إنسانيّ" مزيَّف لواقعنا بدلاً من تمكيننا من تغيير هذا الواقع نفسه. إنّ بايدن هو رئيس الرفاهية الأخير.

إذاً لماذا يظلّ بايدن أفضل من ترامب؟ يشير النقّاد إلى أنّ بايدن يكذب أيضاً ويمثّل رأس المال الكبير إنّما بصورة أكثر تهذيباً، لكنّ هذه الصورة تتّسم بالأهمية للأسف. تسبّب ترامب، بإضفائه البذاءة على الخطاب العام، في تآكل جوهر حياتنا الأخلاقيّ، وهو ما أطلق عليه هيغل تسمية Sitten [التقاليد الأخلاقية] (خلافاً للأخلاق الفردية). يُعَدّ إضفاء البذاءة هذا عمليةً تجري على نطاق عالميّ. لنأخذ مثالاً أوروبياً، حين كتب تسيلارد ديميتير Demeter Szilard، وهو مفوّض وزاريّ ومدير متحف بيتوفي Petofi الأدبيّ في بودابست، في مقالة افتتاحية في تشرين الثاني/ نوفمبر 2020: "أوروبا هي غرفة الغاز الخاصة بجورج سوروس. يتدفّق الغاز السام من محفظة مجتمع مفتوح متعدّد الثقافات، وهو أمرٌ مهلك لطريقة العيش الأوروبية"[85]. وتابع ديميتير واصفاً سوروس بأنّه "الفوهرر الليبراليّ"، مؤكّداً أنّ "جيشه الآريّ الحرّ يؤلّهه أكثر من تأليه هتلر على يد جيشه". لو سُئل ديميتير، فسيستبعد هذه التصريحات على الأرجح ويعدّها مبالغة بلاغية. لكنّ هذا الاستبعاد لا يستبعد بأيّ حال تداعياتها المرعبة. فالمقارنة بين سوروس وهتلر تُعَدّ معادية للسامية إلى أبعد الحدود: إنّها تضع سوروس على قدم المساواة مع هتلر عبر ادّعاء أنّ المجتمع المفتوح المتعدّد الثقافات الذي يروّج له سوروس لا ينذر فحسب بالخطر كالمحرقة اليهودية والعنصرية الآرية التي أيدتها ("الآرية الحرة")، بل إنّه أسوأ وأكثر خطراً على "طريقة العيش الأوروبية".

85 Hungarian Cultural Commissioner Lights Powder Keg of Controversy after Describing Europe" as 'George Soros' Gas Chamber,'" RT World News, November 29, 2020, /https://www.rt.com/news/508146-soros-hungary-nazi-hitler-comparison

إذن، هل هنالك بديل عن هذه الرؤية المرعبة غير "الوجه الإنسانيّ" الخاص ببايدن؟ أفصحت غريتا ثانبيرغ Greta Thunberg أخيراً عن الدروس الثلاثة الإيجابية المستفادة من الجائحة: "من الممكن معالجة أزمة ما كأزمة، ومن الممكن وضع صحّة الناس فوق المصالح الاقتصادية، ومن الممكن الإصغاء إلى العلم"[86]. بلى، لكنّها ممكنات. من الممكن أن تُعامَل أزمةٌ ما لتُستخدَم للتعتيم على أزمات أخرى أيضاً (مثلاً، بسبب الجائحة علينا أن ننسى الاحتباس الحراريّ). ثم إنه من الممكن استخدام الأزمة لجعل الأثرياء أكثر ثراءً والفقراء أشدَّ فقراً (مثلما حدث في 2020 بسرعة غير مسبوقة). كذلك من الممكن تجاهل العلم أو تجزئته (مثلاً: أولئك الذين يرفضون تلقي اللقاحات، والزيادة الهائلة في نظريات المؤامرة وما شابه). يقدّم سكوت غالواي Scott Galloway صورة دقيقة إلى هذا الحدّ أو ذاك للأمور في زمن كورونا الذي نعيشه:

86 Suyin Haynes, "'We Now Need to Do the Impossible.' How Greta Thunberg Is Fighting for a Greener Post-Pandemic World," *Time*, December 8, 2020, https://time.com/5918448/greta-thunberg-coronavirus-climate-change/

> لا نميل إلى قول هذا بصوت مرتفع، لكنّني أشعر كأنّ هذه الجائحة اختُرعت إلى حدٍّ كبير لتحويل نسبة العشرة بالمئة المتربعين على قمة الهرم الاجتماعيّ إلى واحد بالمئة، والهبوط بالتسعين بالمئة المتبقية إلى ما دون ذلك... نحن نتجه نحو أمّة من ثلاثة ملايين سيد يخدمهم 350 مليوناً من الأقنان. لقد قرّرنا حماية الشركات وليس الناس. إنّ الرأسمالية تنهار حرفياً على نفسها ما لم تُعِد بناء ركيزة التعاطف تلك... لقد قرّرنا أنّ الرأسمالية تعني أن نكون من محبّي الشركات والمتعاطفين معها، وأن نكون من أنصار الداروينية ونمارس القسوة على الأفراد.[87]

87 "Capitalism 'Will Collapse on Itself' Without More Empathy and Love: Scott Galloway," Yahoo Finance, December 1, 2020, https://finance.yahoo.com/news/capitalism-will-collapse-on-itself-without-empathy-love-scott-galloway-120642769.html; see also Scott Galloway, *Post Corona: From Crisis to Opportunity* (New York: Portfolio, 2020).

إذن، ما المَخرج الذي يقدّمه غالواي؟ كيف سنمنع الانهيار الاجتماعيّ؟ يتمثّل حلّه في إعادة الحبّ إلى الرأسمالية نتيجة عملية تدمير خلّاقة تترك الأعمال التجارية المخفقة تخفق وتحمي في الوقت عينه أولئك الذين فقدوا وظائفهم. ويوضّح: "نترك الناس يُطردون من وظائفهم كي تتمكّن شركة Apple من البروز إلى الوجود وإخراج Sun Microsystems من العمل، ومن ثمّ نأخذ هذا الازدهار المذهل ونصبح أكثر تعاطفاً مع الناس". تكمن المشكلة بطبيعة الحال

في من تكونه هذه ”النحن“ المضمرة؟ كيف تتمّ إعادة التوزيع على وجه التحديد؟ هل نزيد الضرائب على الفائزين فحسب (Apple في هذه الحالة) ونسمح لهم في الوقت عينه بالإبقاء على وضعهم الاحتكاريّ؟ تتمتّع فكرة غالواي بنزوع جدليّ محدّد: تتمثّل الطريقة الوحيدة للحدّ من عدم المساواة والفقر في السماح للمنافسة في السوق بأداء عملها القاسي (نترك الناس يُطردون)، ثمّ... ماذا؟ هل نتوقّع من آليات السوق نفسها أن تخلق وظائف جديدة؟ أم من الدولة؟ كيف يجري تفعيل ”الحب“ و”التعاطف“؟ أم نعتمد على تعاطف الفائزين ونتوقع منهم أن يسلكوا سلوكاً مشابهاً لسلوك غيتس وبافيت Buffett؟ أجد أنّ إلحاق آليات السوق تلك بالأخلاق والمحبة والتعاطف إشكاليٌّ تماماً. فبدلاً من تمكيننا من الحصول على أفضل ما في هذين العالَمين (أنانية السوق والتعاطف الأخلاقيّ) سيكون حصولنا على أسوأ ما فيهما هو الأكثر ترجيحاً.

يمثّل الوجهَ الإنسانيَّ لهذه ”القيادة ذات الشفافية والأصالة والإنسانية“ غيتس وبيزوس Bezos وزوكربيرغ Zuckerberg، وجوه رأسمالية الشركات المتسلّطة الذين يتظاهرون بأنّهم أبطالٌ محبون للخير، أرستقراطيونا الجُدد الذين يُحتفى بهم في وسائل إعلامنا ويُستشهد بهم بوصفهم مُحسنين يتّسمون بالحكمة. يمنح غيتس المليارات للأعمال الخيرية، ولكن علينا أن نتذكّر كيف أنّه عارض مشروع إليزابيث وارن Elizabeth Warren لزيادة الضرائب بمقدار طفيف. امتدح بيكيتي وكاد ذات مرّةٍ أن يعلن نفسه اشتراكياً، وهو أمرٌ قد نقول إنّه – بمعنىً محدّد وملتوٍ للغاية – صحيح، إذ إنّ ثروته جاءت من خصخصة ما دعاه ماركس ”المشاعات“ الخاصّة بنا، فضائنا الاجتماعيّ المشترك الذي نتحرّك فيه ونتواصل. ليست لثروة غيتس علاقة بتكاليف إنتاج المنتجات التي تبيعها Microsoft – بل في إمكان المرء أن يقول إنّ الشركة تدفع لعامليها في المجال الذهنيّ رواتب مرتفعة نسبياً – وليست نتيجةً لنجاحه في إنتاج برمجيات جيدة بأسعار أقلّ من أسعار منافسيه، أو بفضل ”استغلال“ أشدّ لمستخدميه العاملين في المجال الذهنيّ، بل أصبح غيتس واحداً من أغنى أغنياء العالم نتيجة الاستيلاء على الأجرة من منصّة التواصل التي يستخدمها ملايين الناس وخصخصها وبات يتحكّم فيها. وبالطريقة عينها التي خصخصت بها Microsoft برمجيات التواصل التي يستخدمها معظمنا، خصخصت Facebook جهات اتصالاتنا الشخصية وخصخصت Google بحثنا عن المعلومات... إنّ الشركات الكبرى التي نشأت نتيجة خصخصة المشاعات تبرّر – إلى حدّ ما على الأقل – الفكرة القائلة إنّنا نشهد اليوم صعود إقطاعية جديدة: رأسمالية إقطاعية. يتصرّف السادة الجُدد (بيل غيتس وإيلون ماسك Elon Musk) نتيجة السيطرة على مشاعاتنا بطريقة مشابهة للسادة الإقطاعيين. لنقتبس عبارات جودي دين Jodi Dean: خلافاً للرأسماليّ الذي تعتمد أرباحه على فائض القيمة الذي يخلقه العمال المأجورون نتيجة إنتاج

السلع، يستخلص السيد القيمة نتيجة الاحتكار والإكراه والتأجير... المنصّات الرقمية تُمثّل طواحين مائية جديدة، ويمثّل مالكوها من أصحاب المليارات سادةً جُدداً، ويمثّل الآلاف من عمالها والمليارات من مستخدميها الفلاحين الجُدد.[88]

[88] Jodi Dean, “Neofeudalism: The End of Capitalism?” *Los Angeles Review of Books*, May 12, /2020, https://lareviewofbooks.org/article/neofeudalism-the-end-of-capitalism

هكذا تعمل Apple وMicrosoft وFacebook وGoogle. نحتفظ بحرية خيارنا الشخصيّ، لكنّ نطاق هذا الخيار تحدّده أيّما شركة خصخصت جزءاً معيناً من مشاعاتنا. نبحث عن أيّ معلومة نريدها باستخدام Google ونحدّد بحرّية هوياتنا العامّة باستخدام Facebook وما إلى ذلك. تحاول هذه الشركات الكبرى استعمار مستقبلنا (يقترح غيتس بصورة منتظمة مخطّطات لتنظيم حياتنا المستقبلية) وحتّى فضائنا الخارجيّ (يمتلك ماسك عدداً كبيراً من الأقمار الاصطناعية ويخطّط لتشييد مستوطنات على سطح المريخ).

إذن هنالك شيء من الحقيقة في ”تمرّد“ ترامب على سلطات الشركات الرقمية. تستحق المشاهدةَ حلقاتُ البرنامج الحواريّ الرقميّ ”War Room“ لستيف بانون، أكبر المنظّرين الأيديولوجيين لشعبوية ترامب: لا يسع المرء إلّا أن تبهره كيفية دمجه قدراً كبيراً من الحقائق الجزئية في كذبة شاملة. فادّعاؤه أنّ الفجوة بين الأغنياء والفقراء تنامت وأنّ الشركات الكبيرة ازدادت قوّة في عهد أوباما صحيح، لكنّ هذه السيرورة استمرت فحسب في عهد ترامب، إضافة إلى أنّ الضرائب انخفضت وأنّ أوراق العملة طُبعت لإنقاذ الشركات. إذن نواجه بديلاً زائفاً رهيباً: إعادة ضبط كبيرة للشركات أو شعبوية قومية تتظاهر بمعارضة الشركات الكبيرة لكنّها تصلُ إلى إعادة الضبط عينها في نهاية المطاف. ”إعادة الضبط الكبيرة“ هي صياغة تشير إلى كيفية تغيير بعض الأمور (وحتّى أمور كثيرة) كي تبقى هذه الأمور كما هي تقريباً.

أثمّة طريق ثالث عدا الحدّين الأقصويين لاستعادة الوضع الطبيعيّ السابق و”إعادة الضبط الكبيرة“ للشركات؟ بلى: إعادة ضبط كبيرة حقيقية. ما يجب فعله ليس سراً، فقد أوضحته غريتا ثانبيرغ. أوّلاً علينا أخيراً الاعتراف بأزمة الجائحة على حقيقتها: إنّها جزءٌ من أزمة عالميةٍ لمجمل طريقة عيشنا، من البيئة إلى التوتّرات الاجتماعية الجديدة. ثانياً علينا وضع رقابة وضوابط اجتماعية على الاقتصاد. ثالثاً علينا الاعتماد على العلم، إنّما من غير قبوله ببساطة كعامل في اتّخاذ القرار. لمَ لا؟ دعونا نعود إلى هابرماس الذي بدأنا به: يكمن مأزقنا في أنّنا مرغمون على التحرّك ونحن نعلم أنّنا لا نعرف إحداثيات الوضع الذي نحن فيه، علماً بأنّ عدم التحرّك بحدّ ذاته يُعَدّ تحرّكاً. ولكن أليس هذا الوضع هو الوضع الأساسيّ لكلّ تحرّك؟ ميزتنا الأساسية أنّنا نعلم مدى جهلنا، وهذا العلم بجهلنا يفسح مجالاً من الحرية. نتحرّك حين لا

نعرف الوضع برمته، لكنّ ذلك ليس مجرّد تعيين لحدودنا. ما يمنحنا الحرية هو أنّ الوضع – أقلّه في مجالنا الاجتماعيّ – مفتوحٌ بذاته وليس محدّداً (سابق التحديد) بالكامل.

وضعنا الحالي في الجائحة مفتوح قطعاً. لقد تعلّمنا الدرس الأول: "ضوء الإغلاق" لا يكفي. أخبرونا أنّـ"نا" (اقتصادنا) لا طاقة لنا على إغلاق صارم آخر، فدعونا نغيّر الاقتصاد. يمثّل الإغلاق البادرة السلبية الأشدّ جذرية ضمن النظام القائم. نعبر الدرب إلى ما بعد نظام إيجابيّ جديد نتيجة السياسة وليس العلم. ما ينبغي فعله هو تغيير حياتنا الاقتصادية فتكون قادرة على الصمود في حالات الإغلاق والطوارئ التي تنتظرنا من كلّ بد، بالطريقة عينها التي تُرغمنا فيها حرب ما على تجاهل تقييدات السوق وإيجاد وسيلة لعمل ما هو "مستحيل" في اقتصاد السوق الحرّة.

بالعودة إلى آذار/ مارس 2003، شارك دونالد رامسفيلد Donald Rumsfeld – وزير دفاع الولايات المتحدة آنذاك – قليلاً في تفلسف هواة بشأن العلاقة بين ما هو معروف وما هو مجهول: "هنالك معروفاتٌ معروفة وهي أمور نعلم أنّنا نعرفها. وهنالك مجهولات معروفة، أي أنّ هنالك أموراً نعلم أنّنا لا نعرفها. لكن هنالك أيضاً مجهولات لا نعرفها، وهنالك أمور لا نعلم أنّنا لا نعرفها"[89]. وقد نسي أن يضيف العبارة الرابعة الحاسمة: "المعروفات غير المعروفة"، وهي الأمور التي لا نعلم أنّنا نعرفها، تحديداً اللاوعي الفرويدي، "المعرفة التي لا تعرف نفسها" كما اعتاد لاكان أن يقول. لو عدّ رامسفيلد أنّ المخاطر الأساسية في مواجهة العراق هي "المجهولات غير المعروفة"، وتهديدات صدام التي لم نكن حتّى على علم بها، فسيكون ردّنا أنّ المخاطر الأساسية هي خلافاً لذلك "المعروفات غير المعروفة"، الاعتقادات والافتراضات المُكذّبة التي لا ندرك حتّى أنّنا متمسّكون بها. علينا أن نقرأ زعم هابرماس بأنّه لم يكن لدينا أبداً مثل هذا القدر من المعرفة بما هو غير معروف نتيجة هذه المقولات: زعزعت الجائحة ما علمنا (اعتقدنا) أنّنا نعرفه، وجعلتنا ندرك ما لم نكن نعلم أنّنا لا نعرفه، وأنّنا اعتمدنا – بطريقة مواجهتنا الجائحة – على ما لم نكن نعلم أنّنا نعرفه (جميع افتراضاتنا وأحكامنا المسبقة التي تحدّد تصرّفاتنا حتّى رغم أنّنا لا ندركها). نحن لا نتعامل هنا مع مجرّد العبور من قلّة المعرفة إلى المعرفة وإنّما مع عبور أكثر صعوبة بكثير من قلّة المعرفة إلى معرفة ما لا نعرفه، وتظلّ معرفتنا القاطعة على حالها في هذا العبور لكنّنا نكتسب مساحة خالية للتحرّك.

89 لقد استعنت بهذا المثال مرّات كثيرة في أعمالي، وبإسهاب في الفصل التاسع من كتابي: *Defense of Lost Causes* (London: Verso Books, 2017).

بالنظر إلى ما لا نعلم أنّنا نعرفه – افتراضاتنا وأفكارنا المسبقة – كانت مقاربة الصين (وتايوان وفيتنام) للجائحة أفضل بكثير من مقاربَتي أوروبا

والولايات المتحدة. لقد سئمت من التكرار الأبديّ لعبارة: ”بلى، احتوت الصين الفيروس، ولكن بأيّ ثمن؟“ في إمكان المبلِّغين عن المخالفات وحدهم أن يخبرونا القصة بأكملها عمّا جرى هناك حقاً. لكن واقع الحال أنّه حين تفشّى الفيروس في مدينة ووهان، فرضت السلطات إغلاقاً وأوقفت معظم الإنتاج في أرجاء البلاد، موليةً بوضوح الأولوية لحياة البشر قبل الاقتصاد. صحيح أنّ ذلك حدث مع بعض التأخير، لكنّ السلطات أخذت الأزمة على محمل الجدّ إلى أبعد الحدود. وهي تجني حالياً ثمار ذلك، بما فيه على الصعيد الاقتصاديّ. ولم يكن ذلك ممكناً، كي نكون واضحين، إلّا بفضل استمرار قدرة الحزب الشيوعيّ على فرض الرقابة والضوابط على الاقتصاد. ثمّة تحكّم اجتماعيّ في آليات السوق، وإن كان تحكّماً ”شمولياً“. لكن مجدّداً، السؤال المطروح ليس بشأن كيفية قيام السلطات بذلك في الصين، وإنّما بشأن كيفية وجوب قيامنا بذلك. إذ إنّ الطريقة الصينية ليست الوحيدة الفعّالة، وليست ”ضرورة موضوعية“ بأيّ معنىً قابل للقياس. كذلك لا تُعَدّ الجائحة مجرّد عملية تفشٍّ فيروسيّ، بل إنّها عمليةٌ تحدث ضمن إحداثيات اقتصادية واجتماعية وأيديولوجية بعينها مفتوحة للتغيير.

نعيش حالياً في نهاية 2020 في زمن مجنون يختلط فيه الأمل في أنّ اللقاحات ستجدي بإحباط متزايد، وحتّى بيأس، بسبب عدد الإصابات المتزايد والاكتشافات اليومية تقريباً عن مجهولات جديدة تتعلّق بالفيروس. الإجابة عن سؤال: ”ما الذي علينا عمله؟“ سهلة هنا في المبدأ: نحن نملك الموارد والوسائل لإعادة هيكلة الرعاية الصحية والاقتصاد فيكون في وسعهما تلبية احتياجات السكان في زمن الأزمة. لكن، إذا اقتبسنا عبارة بريخت الأخيرة ”في مديح الشيوعية“ من مسرحيته *Mother* [**الأم**]، ”Er ist das Einfache, das schwer zu machen ist“ (”الأمر بسيط إلى حدّ أنّ تحقيقه بالغ الصعوبة“)، فثمّة كثير من العوائق التي تجعل تحقيقه بالغ الصعوبة، وأهمّها النظام الرأسماليّ العالميّ وهيمنته الأيديولوجية. إذاً هل نحن بحاجة إلى شيوعية جديدة؟ بلى، لكن إلى ما أميل إلى تسميته شيوعية محافظة باعتدال: فعل كلّ الخطوات الضرورية، من التعبئة الشاملة ضدّ التهديد الفيروسيّ والتهديدات الأخرى إلى وضع إجراءات لتقييد آليات السوق وإضفاء طابع اجتماعيّ على الاقتصاد، ولكن بطريقة محافظة (بمعنى بذل جهد للحفاظ على شروط الحياة البشرية، وهذا سيتطلّب – للمفارقة – تغيير الأمور) ومعتدلة (بمعنى المراعاة الدقيقة للآثار الجانبية غير المتوقّعة لتدابيرنا).

وكما أشار إيمانويل رينو Emmanuel Renault، المقولة الماركسية الأساسية التي تُدخل الصراع الطبقيّ في صميم نقد الاقتصاد السياسيّ هي ما يُدعى ”قوانين الميل“، القوانين التي تصف الميل الضروريّ في التطوّر الرأسماليّ مثل ميل معدّل الربح للانخفاض (وكما لاحظ رينو، كان أدورنو Adorno هو من أصرّ على هذه الأبعاد في مفهوم ماركس للميل (Tendenz) الذي يجعله غير

قابل للاختزال بمجرّد "اتجاه").[90] يستخدم ماركس نفسه في وصف هذا "الميل" مصطلح تضاد، إذ إنّ انخفاض معدّل الربح هو ميلٌ يدفع الرأسماليين إلى زيادة استغلال العمال، والعمال إلى مقاومته، فلا تتحدّد النتيجة قبلاً وإنّما تتوقف على النضال. فمثلاً أرغم العمال المنظّمون في بعض دول الرعاية الاجتماعية الرأسماليين على تقديم تنازلات كبيرة. الشيوعية التي أتحدّث عنها هي تحديداً ميل من أمثال هذه الميول. أسباب ذلك واضحة: نحتاج تحرّكاً عالمياً للتصدّي للتهديدات البيئية والصحية، ولا بدّ من إضفاء طابع اجتماعيّ بطريقة ما على الاقتصاد. ويتعيّن علينا قراءة المجموعة السائدة من ردود فعل الرأسمالية العالمية على الجائحة: إعادة الضبط الكبيرة الزائفة والشعبوية القومية والتضامن المختزل بالتعاطف وما شابه، وهي تحديداً ردّ فعل على الميل الشيوعيّ.

90 انظر: T. W. Adorno, *Philosophische Elemente einer Theorie der Gesellschaft* (Frankfurt: Suhrkamp, 2008), p. 37–40.

إذاً، كيف سيسود الميل الشيوعيّ؟ الإجابة مؤسفة: نتيجة مزيد من الأزمات المتكرّرة. دعونا نوضّح الأمر: الفيروس ملحد بكلّ ما تعنيه الكلمة. بلى، علينا تحليل كيف أنّ الجائحة مشروطة اجتماعياً، غير أنّها بالأساس نتاجٌ طارئٌ عديم المعنى، وما من "رسالة أبعد غوراً" فيها (لا يمكن أن تكون من وجهة نظرنا عقاباً إلهياً كما كان حال الطاعون في العصور الوسطى). قبل أن يختار فرويد عبارة فرجيل Virgil الشهيرة[91] *acheronta movebo* [حرّكت أخِرون] كشعار لكتابه *Interpretation of Dreams* [**تفسير الأحلام**]، أخذ في الحسبان مرشّحاً آخر، كلمات الشيطان من ملحمة ميلتون Milton الشهيرة *Paradise Lost* [**الفردوس المفقود**]: "ما عسى أن يمدنا به الأمل من قوّة/ إن لم يكن ما يمدّنا به اليأس من حافز على العزم". هذا ما ينبغي أن يكون عليه ردّ فعلنا – نحن الشياطين المعاصرين الذين دمّرنا أرضنا – على التهديدات الفيروسية والبيئية. لو أُرغمنا على الاعتراف بأنّ وضعنا ميؤوس منه، فعلينا أن نجعل من اليأس حافزاً على العزم. حريٌّ بنا أن نقبل أنّ وضعنا مُحبِط، وأن نتصرّف بحزم حيال ذلك. لنستشهد مرّة أخرى بغريتا ثانبيرغ: "لم يعد كافياً بذل قصارى جهدنا؛ نحن بحاجة الآن إلى ما يبدو مستحيلاً". يتعامل علم المستقبل مع ما هو ممكن، ونحن بحاجة إلى ما هو – من وجهة نظر النظام العالميّ القائم – مستحيل.

91 العبارة المُستشهد بها: "لئن لم أُثنِ السماوات حرّكت أخِرون [نهر الجحيم]"، والمقصود استتباب العزم على بلوغ القصد بأيّ سبيل. (المترجم)

"يصبو الحب إلى الشخصيّ، ولذا يصبو الحب إلى الانقسام. إنّها الغريزة المسيحية بأن تكون سعيداً لأنّ الربّ قسّم الكون إلى قطع صغيرة.. المسيحية سيفٌ يقسّم ويُحرّر، وما من فلسفة أخرى تجعل الربّ مبتهجاً بانفصال الكون إلى أرواح حيّة"[92]. ثم إنّ تشيسترتون يدرك إدراكاً تاماً أنّ الربّ لا يكتفي بفصل الإنسان عن ذاته فيحظى بمحبة الجنس البشريّ، وهذا الانفصال لا بدّ من أن ينعكس مرّة أخرى على الربّ ذاته فيتخلّى الربّ عن ذاته: "عندما اهتزّ العالم وأظلمت الشمس في السماء، لم يحدث ذلك عند الصَّلب، وإنّما عند الصرخة من على الصليب: الصرخة التي أقرّت بأنّ الربّ تخلّى عن الربّ". وبسبب هذا التداخل بين انفصال الإنسان عن الربّ وانفصال الربّ عن ذاته، فالمسيحية كما يكتب تشيسترتون:

92 G. K. Chesterton, *Orthodoxy* (San Francisco: Ignatius Press, 1995), p. 139.

> ثورية إلى أبعد الحدود. أن يفقد الرجل الصالح الرجاء هو أمر نعرفه بالفعل. أمّا أن يفقد الربّ الرجاء، فهو مفخرة لجميع العصاة على الدوام. المسيحية هي الديانة الوحيدة على الأرض التي ترى أنّ القدرة الكلّية تنتقص من كمال الربّ. المسيحية وحدها ترى أنّ الربّ كي يكون ربّاً بكلّيته ينبغي أن يكون عاصياً وكذلك مليكاً.

يدرك تشيسترتون تمام الإدراك أنّنا نقترب في النتيجة من "مسألة أشدّ إبهاماً ورهبة من أن تُناقش بيُسر"، فيكتب: "هنالك في تلك الحكاية المروّعة عن آلام المسيح اقتراحٌ عاطفيٌّ متميز مفاده أنّ خالق كلّ شيء لم يعانِ – بطريقة لا يمكن تصوّرها – من سكرات الموت فحسب، بل كذلك من الشكّ". في الشكل النموذجيّ للإلحاد، يتوقف البشر المتحرّرون عن الإيمان بالإله. أمّا في المسيحية، فالربّ يموت من أجل ذاته. في سؤال المسيح: "أبتي، لِمَ تركتني؟" يقترف بنفسه ما هو بالنسبة إلى مسيحيّ خطيئة لا تُغتفر: يرتاب في إيمانه.

إذا أخذنا هذا التناقض الظاهريّ على محمل الجد، يُحظر علينا اللجوء إلى شخصية الربّ المتعالية النموذجية بوصفه سيداً خفياً يعلم معنى ما يبدو لنا مصيبة عديمة المعنى، الربّ الذي يرى الصورة بأسرها فيساهم ما نعتبره بلاءً في تحقيق الانسجام الكلّيّ. عندما نواجه حدثاً مثل المحرقة اليهودية أو موت الملايين في الكونغو في السنوات الأخيرة، ألن يكون فجوراً ادّعاء أنّ لهذه الأهوال معنىً أكثر عمقاً بمساهمتها في تحقيق انسجام الكلّ؟ هل هنالك كلٌّ يمكن أن يسوّغ غائياً حدثاً كالمحرقة اليهودية وفي النتيجة يُكفِّر عنه؟ يعني موت المسيح على الصليب أنّ على المرء دونَ قيدٍ إسقاط تصوّر الربّ بوصفه راعياً متعالياً يضمن خاتمةً سارّةً لأعمالنا، الضامن للغائية التاريخية. موت

المسيح هو موت هذا الإله، وهذا الموت يمتنع عن أيّ "معنىً أكثر عمقاً" يُعتّم على واقع المصائب التاريخية الوحشيّ.

كذلك يسمح لنا هذا الأمر بتقديم الإجابة المسيحية المتناسقة الوحيدة عن السؤال الأبديّ الحاسم: هل كان الربّ موجوداً في معسكر أوشفيتز؟ كيف سمح بحدوث مثل هذه المعاناة الرهيبة؟ لماذا لم يتدخّل ويمنع حدوثها؟ ليست الإجابة أنّ علينا أن نتعلّم الانسحاب من تقلباتنا الأرضية والتماهي في السلام المبارك للربّ الذي يقيم في الأعالي بعيداً عن مصائبنا، حيث ندرك البُطلان المطلق لشواغلنا البشرية (إجابة الوثنيّ المعتادة)، ولا أنّ الربّ عليم بما يفعل وسيجزينا بطريقة ما عن معاناتنا ويداوي جروحنا ويعاقب المذنبين (الإجابة الغائية المعتادة). الإجابة موجودة مثلاً في المشهد الأخير من فيلم Shooting Dogs [إطلاق الرصاص على الكلاب] – ظهر في دور العرض في الولايات المتحدة بعنوان Beyond the Gates [وراء البوابات] – إذ تظهر فيه مجموعة من لاجئي التوتسي في مدرسة مسيحية يعلمون أنّهم سيتعرضون للذبح قريباً بأيدي رعاع الهوتو. ينهار معلم بريطانيّ شاب من اليأس ويسأل شخصيته الأبوية الكاهنَ المسنَّ – يمثّل دوره جون هرت John Hurt – أين المسيح الآن ليمنع المذبحة؟ فيجيب الكاهن: المسيح حاضرٌ هنا أكثر من أيّ وقت مضى. إنّه يعاني معنا هنا. حين نلعن قدرنا يأساً وحين نقبل بشجاعة أنّه ما من قوّة عُليا ستساعدنا، سنجده إلى جانبنا هنا.

إذاً الرسالة الحقيقية للميلاد ليست: "نحن بمأمن؛ هنالك أحدٌ ما في الأعلى يعتني بنا، وأرسل إلينا ابنه الوحيد رسولاً!" ولكن: "نحن وحيدون ومسؤولون عن قدرنا". يمثّل هذا الافتقار إلى دعم عُلويّ اسماً آخر للحرية يجسّد المسيح هِبة الحرية الإلهية، أو كما عبّرت عن ذلك فرقة Rammstein في أغنيتها "Ohne Dich": "من دونكِ لا أستطيع أن أحيا، ومعك أكون وحيداً"؛ مع المسيح فحسب نكون وحدنا حقاً. لن نسير اليوم مع المسيح إلّا إذا تحمّلنا مسؤوليتنا إزاء الجائحة والمصائب الأخرى ونسير معاً في تضامن شامل، مدركين أنّه ما من قوّة عُليا تضمن لنا خاتمة سارّة. الاسم المسيحيّ لهذا التضامن الشامل هو الروح القدس، جماعة المؤمنين الذين تربطهم المحبة. حينما طرح أتباع المسيح عليه سؤالاً عن كيفية معرفتهم بعودته بعد موته، أجابهم: حين تربط المحبة بين اثنين منكم، سأكون بينكم. يعود المسيح بوصفه رابط المحبة بين أتباعه وليس بوصفه قوّة عُليا توحّدهم.

تُعَدّ إشكاليةً فكرةُ أنّ الكرنفال يمكن أن يكون نموذجاً لحركات الاحتجاج التقدّميّ، مع احتجاجات مثل هذه ليست كرنفالية بشكلها وجوّها (عروض مسرحية، أناشيد فكاهية) فحسب، بل كذلك بتنظيمها غير المركزيّ. أليس واقعُ الرأسمالية المتأخرة الاجتماعيّ نفسه كرنفالياً؟ ألم تكن ليلة الكريستال (Kristallnacht) السيئة الصيت في 1938 – اندلاع الهجمات العنيفة شبه المنظمة وشبه العفوية على اليهود ومنازلهم ومعابدهم ومنشآتهم التجارية – كرنفالاً إن كان هنالك كرنفالٌ أصلاً؟ إضافة إلى ذلك، أليس "الكرنفال" اسم وجه السلطة الخفيّ الفاجر أيضاً، من الاغتصابات الجماعية إلى الإعدامات الجماعية؟ دعونا لا ننسى أنّ ميخائيل باختين Michail Bakhtin طوّر مفهوم الكرنفال في كتابه عن رابليه Rabelais الذي كتبه في ثلاثينيات القرن العشرين مثل ردٍّ مباشر على كرنفال التطهير الستالينيّ. جرت العادة أن تكون إحدى إستراتيجيات "الطبقات الدنيا" في مقاومة الذين يتولّون السلطة تقديمَ عروض مرعبة للوحشية لتعكير صفو حسّ التهذيب لدى الطبقة الوسطى. ولكن مع الأحداث التي جرت في مبنى البرلمان فقدَ الكرنفال براءته مرّةً أخرى. إذاً، هل ستكرّر الملهاة نفسها كمأساة في هذه الحالة أيضاً؟ هل سيعقب ذلك انقلابٌ عنفيٌّ جسيم؟ من المؤكد أنّ هنالك علامات تنذر بالسوء تشير إلى هذا الاتجاه:

> كشف استطلاعٌ للرأي أُجري في اليوم التالي للاعتداء على مبنى البرلمان أنّ 45% من الجمهوريين يؤيّدون هذا التصرّف ويعتقدون أنّه ينبغي فرض ترامب رئيساً بالقوّة، في حين يرفض 43% منهم هذا التصرّف أو على الأقلّ لا يؤيدون استخدام العنف لتحقيق ذلك الهدف. بناء على ذلك تُمثّل أقصى اليمين قاعدة من قرابة 30 مليون شخص، وهو عدد متزايد لمن يرفضون صراحة مبدأ الديموقراطية وهم مستعدون لقبول حُكم استبداديّ. نحن محظوظون لأنّ موضوع تبجيلهم مشلول بسبب النرجسية والضحالة المعرفية. لكنّها مسألة وقت فحسب قبل أن يبرز ترامب جديد، أقلّ توهماً وأكثر كفاءة؛ الدرب إلى إقامة نظام استبداديّ ضدّ إرادة الأغلبية ممهّدٌ الآن على أكمل وجه.[94]

94 Warren Montag, interview by Juan Dal Maso, "It Is Only a Matter of Time Before a More Competent Trump Emerges," *Left Voice*, January 11, 2021, https://www.leftvoice.org/the-far-right-has-never-been-so-powerful-interview-with-warren-montag

باستثناء أنّ ترامب ليس مشلولاً بسبب النرجسية والضحالة المعرفية لِهاتين السِّمَتين جذورٌ عميقة في نجاحه. إنّ الموقف الأساسيّ لأتباعه يمثّل "ضحالةً معرفيةً": في إنكار التأثير الحقيقيّ لجائحة كورونا، وإنكار الاحتباس الحراريّ، وإنكار وجود العنصرية والتحيّز الجنساني في الولايات المتحدة. الاعتقاد بأنّه

إن كان هنالك أيّ تهديد حقيقيّ لطريقة العيش الأميركية فهو ناجمٌ بالضرورة عن مؤامرة. برزت من هذه الضحالة حركةٌ يمينيةٌ متطرّفةٌ كبيرةٌ تتكوّن قاعدتها الطبقية (كما حال الفاشية) من خليط من عمال الطبقة الوسطى الدنيا البيض الخائفين من فقدان امتيازاتهم، بالإضافة إلى داعميهم من أصحاب المليارات المتكتِّمين.

هل أقلق اقتحام مبنى البرلمان أجهزة الدولة في الولايات المتحدة حقاً؟ قد يبدو الأمر كذلك: "أصدر مارك ميلي Mark Milley وهو أقدم الجنرالات في الولايات المتحدة وهيئة الأركان المشتركة مجتمعة، وهي هيئةٌ تضمّ رؤساء الفروع العسكرية جميعها، بياناً الثلاثاء (12 كانون الثاني/ يناير) يشجب فيه الاجتياح العنيف لمبنى البرلمان الأميركيّ الأسبوع الماضي ويذكّر أفراد القوات المسلحة بواجبهم في مساندة الدستور والدفاع عنه ونبذ التطرّف"[95]. ثمّة آثارٌ خفية للتضامن بين السلطات والمحتجّين. وكما لاحظ كثيرون، تخيلوا المدى الذي كانت ستبلغه وحشية السلطات فقط لو أنّ محتجّي حركة BLM [حياة السود مهمة] فرضوا حصاراً على مبنى البرلمان. لم يُهزم المحتجّون، بل عادوا ببساطة إلى بيوتهم (كما أوصاهم ترامب) وتجمعوا في حانة مجاورة للاحتفال بفعلتهم.

95 "Military Joint Chiefs Statement Condemning 'Sedition and Insurrection' at US Capitol," CNN, January 12, 2021, https://edition.cnn.com/2021/01/12/politics/joint-chiefs-memo-capitol-nsurrection/index.html

وفقاً لأحد المعلّقين، معظم محتجّي مبنى البرلمان "تدفّقوا من ضواحيهم الميسورة نحو مبنى البرلمان الأميركي، مستعدين للموت في سبيل قضية امتيازات البيض"[96]. قد يكون ذلك صحيحاً، لكنّ كثيرين منهم كانوا جزءاً من الطبقة الوسطى الدنيا التي ترى أنّ امتيازاتها تتعرض لتهديدِ تحالفٍ مُتخيّل من المؤسّسات التجارية الكبيرة (شركات الإعلام الرقمية الحديثة والمصارف)، وإدارات الدولة (تتحكّم في حياتنا اليومية، وتفرض إجراءات الإغلاق والأقنعة الواقية وضبط الأسلحة، وقيوداً كثيرة على حرياتنا الأساسية)، والكوارث الطبيعية (الجوائح وحرائق الغابات)، و"الآخرين" (الفقراء والمهاجرين ومجتمع الميم) التي يُزعم أنّها تستنفد موارد الدولة المالية وتُرغم الدولة على زيادة الضرائب. الأساسيّ هنا مقولة "طريقة عيشنا"، والتركيز على التواصل الاجتماعيّ في المشارب والمقاهي أو الأحداث الرياضية الكبيرة، وحرية تنقّل السيارات والحق في امتلاك الأسلحة. كلّ ما يشكّل تهديداً لهذه الحريات مرفوضٌ ومُدان بوصفه مؤامرة، من رقابة الدولة (رغم أنّها مقبولة عندما تستهدف "الآخرين") والممارسات التجارية الصينية غير العادلة إلى "الإرهاب" الصائب سياسياً والاحتباس الحراريّ والجوائح... من الواضح أنّ "طريقة العيش" هذه ليست محايدةً طبقياً. إنّها طريقة عيش

شريحة من الطبقة الوسطى البيضاء التي ترى نفسها تجسيداً ”لماهية أميركا“.

Will Bunch, “An Insurrection of Upper-Middle Class White People,” *The Philadelphia Inquirer*, January 12, 2021, https://www.inquirer.com/columnists/attytood/capitol-breach-trump-insurrection-impeachment-white-privilege-20210112.html [96]

لذلك، عندما نسمع أنّ عميل هذه المؤامرة، ”الدولة العميقة“ التي يسيطر عليها الليبراليون، لم يسرق الانتخابات فحسب، إنما ينتزع منا طريقة عيشنا (التي تتآكل تدريجياً)، علينا تطبيق مقولة أخرى (كما فعل سبريغليا في الاقتباس المذكور سابقاً): سرقة من أجل المتعة. تنبّأ جاك لاكان في مطلع سبعينيات القرن العشرين أنّ العولمة الرأسمالية ستُسفر عن نمط جديد من العنصرية يركّز على شخصية الآخر الذي ينتزع منا متعتنا (الرضى العميق الذي يوفّره لنا انغماسنا في طريقة عيشنا)، و/ أو يمتلك بذاته ويبدي متعةً مفرطةً تفلت من أيادينا (يكفي أن نذكر التخيلات المعادية للسامية عن الشعائر اليهودية السرية، أو تخيلات المتعصبين البيض عن البراعة الجنسية الفائقة التي يتمتّع بها الرجال السود، أو تصورات الأميركيين البيض عن المكسيكيين بوصفهم مغتصبين وتجار مخدرات...). هنا يجب عدم خلط المتعة بالجنس أو بالملذات الأخرى. إنّها رضىً عميق عن طريقة عيشنا الخاصة يتضمّن جنونَ الارتياب بشأن طريقة عيش الآخر أيضاً. ما يقلقنا بشأن الآخر يتجسّد عادة في تفاصيل ضئيلة في الحياة اليومية (رائحة طعامهم أو ضجيج موسيقاهم أو ضحكاتهم) (بالمناسبة، ألم يكن مزيجٌ مشابهٌ من الانبهار والرعب حاضراً في ردّ فعل اليسار الليبرالّي على المحتجّين الذين اقتحموا مبنى البرلمان؟ ألم تكن لمحةُ حسد واضحةً في الإدانات للناس ”العاديين“ جميعها الذين اقتحموا مقعد السلطة المقدّس في لحظة كرنفالية علّقت مؤقّتاً قواعدَنا في الحياة العامّة؟)

إنّ أبعاد ما ينكره المحتجّون المناصرون لترامب مروّع، فرغم اللقاح لا تزال جائحة كورونا تتفشّى مع تفاقم التفاوتات القائمة. أمّا بالنسبة إلى بيئتنا، فذكرت صحيفة *The Guardian*: ”يواجه الكوكب مستقبلَ انقراض جماعيٍّ مروّع، وتراجعاً صحياً وجيَشانَ الاضطرابات المناخية التي تهدّد البقاء البشريّ بسبب الجهل والتقاعس، وفق مجموعة علماء دولية حذّرت من أنّ الناس لم يدركوا حتّى الآن الطابع المُلحّ لأزمات المناخ والتنوع الحيويّ“.[97] لكنّ ما ينبغي التركيز عليه الآن هو عناصر إنكار آخر في مراسم تنصيب بايدن. إليكم تعليق سارة إليزابيث كاب SE Cupp على احتفال التنصيب:

Phoebe Weston, “Top Scientists Warn of ‘Ghastly Future of Mass Extinction’ and Climate Disruption,” *The Guardian*, January 13, 2021, https://www.theguardian.com/environment/2021/jan/13/top-scientists-warn-of-ghastly-future-of-mass-extinction-and-climate-disruption-aoe [97]

بدا الأمر كأنّ شيئاً لم يحدث حقاً، عدا أنّه حدث بالطبع. أصابت السنوات الأربع الماضية كثيراً من الأميركيين بصدمة لن تتلاشى بين عشية وضحاها. هنالك بعض التعافي الذي يجب إجراؤه، وأمام بايدن رحلة طويلة، ولكن أقلّه لساعة أو ما يقاربها في مبنى البرلمان الأميركيّ، كانت هنالك أخيراً مدة راحة من الجنون اشتدّت الحاجة إليها، لحظة الترسيم التي ستَسِم إلى الأبد عام 2020. [98]

SE Cupp, “Did That Really Just Happen?” CNN, January 23, 2021, 98
https://edition.cnn.com/2021/01/20/opinions/post-inauguration-commentary/index.html

لم يقتصر الأمر على عدم ظهور ترامب، فقد خرج من صميم العالم الذي يحتفل في ”التلة التي نتسلقها“، القصيدة التي ألقتها الشاعرة الشابة لوريت أماندا غورمان laureate Amanda Gorman في حفل تنصيب بايدن. تصف نفسها بأنّها ”فتاة سوداء نحيلة انحدرت من العبيد وربّتها أمّ عازبة في وسعها أن تحلم بأن تصبح رئيسةً لتجد نفسها فحسب تلقي قصيدةً لرئيس“، وقالت:

> وهكذا نرفع أنظارنا، ليس إلى ما يقف بيننا، بل إلى ما يقف أمامنا/ نغلق الفجوة لأنّنا نعرف كيف نضع مستقبلنا أوّلاً، علينا أوّلاً وضع اختلافاتنا جانباً/... نلقي أسلحتنا كي تتمكّن أيادينا من التلاقي. لا نسعى لإيذاء أحد ونسعى للوئام بين الجميع/ لقد رأينا قوّةً من شأنها تحطيم أمتنا، بدلاً من تشاطرها/ من شأنها تدمير بلدنا إذا قصدت تأخير الديموقراطية/ وكادٍ هذا المسعى أن ينجح، لكن في حين يمكن تأخير الديموقراطية دورياً، فلا يمكن هزيمتها أبداً في هذه الحقيقة.

إن كان لمصطلح ”أيديولوجيا“ أيّ معنى، فهذا هو: وهم أن تجتمع المؤسّسة والتقدّميون جميعهم في لحظة جليلة من الوحدة. حينما ننغمس في هذه الوحدة ستبدو فعلياً كأنّ أحداً مثل ترامب لم يظهر حقاً. ولكن من أين أتى ترامب وأتباعه؟ ألا يشير صعوده إلى وجود شرخ عميق في هذه الوحدة؟ إذا أردنا أن يكون لنا أيّ مستقبل، ينبغي لنا ألّا نضع اختلافاتنا جانباً وإنّما عكس ذلك تحديداً. ينبغي لنا التركيز على الانقسامات والتناقضات التي تعصف بمجتمع الولايات المتحدة. ليست ”الحرب الهمجية“ بين المؤسّسة الليبرالية وأتباع ترامب بل التناحر الطبقيّ الفعليّ وتداعياته كافّة (العنصرية والتحيّز الجنسيّ والأزمة البيئية).

إنّ الدعوات إلى الوحدة ورأب صدع الانقسامات ليست سوى دعوات باطلة. فترامب بحدّ ذاته يرمز إلى تقسيم جذريّ بيننا وبينهم (”أعداء الشعب“)، والطريقة الوحيدة المناسبة لهزيمته هي إثبات أنّ تقسيمه تقسيم باطل، وأنّه واحد ”منهم“ حقاً (مخلوق من ”مستنقع“ المؤسّسة)، واستبدال هذا التقسيم

بآخر حقيقيّ أكثر جذرية: المؤسّسة بكلّ وجوهها في مواجهة الوحدة الواسعة للقوى التحرّرية جميعها.

إذاً، هل ستعيد الملهاة نفسها كمأساة؟ ما من إجابة مسبقة عن هذا السؤال؛ يتوقّف الأمر علينا جميعاً، وعلى تعبئتنا السياسية (أو عدم وجودها). ”كن حذراً في ما تتمناه!“، هكذا حذّر ترامب بايدن حينما هدّده بايدن بعزله من منصبه استناداً إلى التعديل الخامس والعشرين.[99] ربما كان على ترامب نفسه أن يكون أكثر حذراً في تمنّيه الحصول على دعم من محتجّي أقصى اليمين. لكنّه أشار إلى نقطة وثيقة الصلة بالموضوع أيضاً: ما تمناه بايدن، رؤيته الواسعة لأميركا متحدة جديدة متناقضة، حلم مستحيل التحقّق، وكلّما أسرعنا في الاستيقاظ منه، كان الوضع أفضل لجميعنا. من السهولة هزيمة هدف واضح مثل ترامب، لكنّ النضال الحقيقيّ يبدأ الآن.

99 “‘Be Careful What You Wish For’: Trump Threatens Biden Over 25th Amendment,” CNN, https://edition.cnn.com/videos/politics/2021/01/12/trump-alamo-border-wall-texas-remarks-vpx.cnn

غير أنّ هذا كلّه معروف للجميع. ما يتعيّن علينا هو تطبيق أبيات إليوت على حدثين سياسيين آخرين حدثا في الأوان الأخير. ألم تكن المسرحية الهزلية التي وقعت أحداثها في واشنطن مطلع كانون الثاني/ يناير 2021 الدليل القاطع – إن كان ثمّة حاجة إلى دليل – على أنّه ينبغي ألّا يُسلَّم أسانج للولايات المتحدة؟ سيكون ذلك بمنزلة تسليم المنشقّين الذين هربوا من هونغ كونغ للصين. الحدث الأول: عندما ضغط ترامب على نائبه مايك بينس Mike Pence كي لا يصدق على الأصوات الانتخابية، طلب من بينس فعل الأمر الصائب (بلى، فنظام الولايات المتحدة الانتخابيّ زائف وفاسد. إنّه نظام مخادع كبير تنظمه "الدولة العميقة" وتتحكّم فيه) من أجل سبب باطل. تُعَدّ تداعيات طلب ترامب مثيرة للاهتمام. لقد حاجج في أنّه كان في وسع بينس – بدلاً من مجرّد فعل دوره الشكليّ الذي ينصّ عليه الدستور – تأجيل أو عرقلة التصديق على نتائج المجمَّع الانتخابيّ التي كان من المقرر أن تحدث في الكونغرس.[101] بعد عدّ الأصوات، لم يقم نائب الرئيس إلّا بإعلان النتيجة التي حُدّد محتواها قبلاً، لكنّ ترامب أراد من بينس التصرّف كأنّه من يتخذ القرار فعلياً. لم يكن ما طالب به ترامب ثورة وإنّما محاولة يائسة لإنقاذ الوضع بإرغام بينس على التحرّك ضمن النظام المؤسّسيّ، آخذاً النص القانونيّ بحَرفية أكثر من المقصود منه.

101 Kevin Liptak, "Pence Faces Pressure from Trump to Thwart Electoral College Vote," CNN, January 5, 2021, https://edition.cnn.com/2021/01/05/politics/mike-pence-donald-trump-electoral-college/index.html الحدث الثاني: عندما اقتحم المحتجّون المناصرون لترامب مبنى البرلمان في 6 كانون الثاني/ يناير، عملوا على الأمر الصائب لسبب باطل أيضاً. كانوا محقين في احتجاجهم على نظام الولايات المتحدة الانتخابيّ بآلياته المعقّدة التي تهدف إلى جعل أيّ تعبير مباشر عن الاستياء الشعبيّ مستحيلاً (هذا ما ذكره الآباء المؤسّسون بكلّ وضوح). لكنّ محاولتهم لم تكن انقلاباً فاشياً، فقبل استيلاء الفاشيين على السلطة، كان لديهم ميل تاريخيّ إلى عقد صفقة مع مؤسّسات الأعمال التجارية الكبيرة، لكن لدينا اليوم عناوين أخبار من قبيل: "لا بدّ من إزاحة ترامب من المنصب حفاظاً على الديموقراطية، كما يقول زعماء رجال الأعمال".[102] إذاً، هل حرّض ترامب المحتجّين على مؤسّسات الأعمال التجارية الكبيرة؟ ليس حقاً. تذكّروا أنّ ستيف بانون طُرد من البيت الأبيض عندما عارض خطة ترامب الضريبية ودافع فضلاً عن ذلك صراحة عن زيادة الضرائب على الأغنياء بنسبة 40%، إضافة إلى قوله إنّ إنقاذ المصارف بالأموال العامّة ليس سوى "اشتراكية من أجل الأغنياء". يشبه دفاع ترامب عن مصالح الناس العاديين دفاع كين Kane في فيلم ويلز Welles الكلاسيكيّ حين ردّ على اتهام مصرفيّ غنيّ له بأنّه يتحدّث نيابة عن الغوغاء الفقراء. فقد ردّ بأنّ صحيفته تتحدّث حقاً نيابة عن الناس العاديين الفقراء لمنع الخطر الحقيقيّ المتمثّل في أنّ الناس العاديين الفقراء سيتحدّثون نيابة عن أنفسهم.

102 Matt Egan, "Trump Should Be Removed From Office to Preserve Democracy, Business Leaders Say," CNN, January 7, 2021, https://edition.cnn.com/2021/01/06/business/capitol-hill-violence-business-leaders/index.html على غرار أيّ شعبوية، لا تثق شعبوية اليوم بالتمثيل السياسيّ أيضاً، مدّعية أنّها تتحدّث مباشرة نيابة عن الشعب.[103] تشتكي من تكبيل "الدولة العميقة" والمؤسّسة المالية لأياديها، فتكون رسالتها: "لو لم تكن أيادينا مكبّلة فقط، لكنّا قادرين على التخلّص من أعدائنا مرّة واحدة وإلى الأبد". غير أنّ شعبوية اليوم – خلافاً للشعبوية التسلّطية القديمة (كالفاشية) المستعدّة لإلغاء ديموقراطية التمثيل الشكليّ وتولّي نظام جديد وفرضه – لا تملك رؤيةً متماسكةً عن

نظام جديد ما. محتوى أيديولوجيتها وسياساتها الإيجابيّ هو ارتجالٌ غير متّسق من التدابير الهادفة لرشوة "فقرائنا" وتخفيض ضرائب الأغنياء وتركيز كراهية الناس على المهاجرين ونخبتنا الفاسدة التي تستعين بمصادر خارجية لتوفير الوظائف، وما شابه. هذا السبب في أنّ شعبويي اليوم لا يرغبون حقاً في التخلّص من الديموقراطية التمثيلية الراسخة والاستيلاء الكامل على السلطة؛ "من دون النضال ضدّ 'قيود' النظام الليبراليّ سيكون على اليمين الجديد في الواقع تحرّك حقيقيّ ما"، وهذا ما سيجعل خواء برنامجهم واضحاً للعيان. شعبويو اليوم لا يمكن أن يعملوا إلّا نتيجة تأجيل تحقيق أهدافهم إلى أجل غير محدد ما داموا لا يستطيعون الاستمرار إلّا بوصفهم يعارضون "الدولة العميقة" للمؤسّسة الليبرالية. "في هذه المرحلة على الأقل، لا يسعى اليمين الجديد لتوطيد قيمة عُليا – مثل الأمة أو الزعيم – تعبّر تماماً عن إرادة الشعب وتتيح في النتيجة إلغاء آليات التمثيل وربما تقتضي إلغاءها".

103 The uncredited quotes that follow are from Yuval Kremnitzer, "The Emperor's New Nudity: The Media, the Masses, and the Unwritten Law" (manuscript).

هذا يعني أنّ ضحايا ترامب الحقيقيين هم داعموه العاديون الذين يأخذون على محمل الجد ثرثرته المناهضة لنخب الشركات الليبرالية وللمصارف الكبيرة. إذ إنّ منتقديه الليبراليين لا يتهمونه إلّا بالظهور كأنّه يتحكّم في أنصاره المستعدين للقتال بعنف في سبيله، في حين أنّه يقف إلى جانبهم ويحرّضهم على العنف. لكنّه لا يقف حقاً إلى جانبهم، ففي صبيحة 6 كانون الثاني/ يناير، خاطب مسيرة "أنقذوا أميركا" في إليبس، وهي حديقة قريبة من البيت الأبيض، قائلاً: "سنذهب إلى مبنى البرلمان ونهلّل لأعضاء مجلس الشيوخ ومجلس النواب الشجعان، ومن المرجّح أنّنا لن نهلّل كثيراً لبعضهم لأنّكم لن تستعيدوا بلدنا بالضعف. عليكم إظهار القوّة وأن تكونوا أقوياء"[104]. ولكن عندما عمل الغوغاء على ذلك واقتربوا من مبنى البرلمان، تراجع ترامب إلى البيت الأبيض وتفرّج على اندلاع أعمال العنف على شاشة التلفاز.

104 Justin Vallejo, "Trump 'Save America Rally' Speech Transcript from 6 January," *The Independent*, January 13, 2021, https://www.independent.co.uk/news/world/americas/us-election-2020/trump-speech-6-january-transcript-impeachment-b1786924.html

هل أراد ترامب حقاً الانقلاب؟ كلّا، على نحو لا لبس فيه. عندما اخترق الغوغاء مبنى البرلمان، أدلى بتصريح: "أعرف مدى ألمكم، أعرف مصابكم، لدينا انتخابات سُرقت منّا. كانت انتخابات بغالبية ساحقة والجميع يعلمون ذلك ولا سيما الطرف الآخر، ولكن عليكم العودة إلى بيوتكم الآن. يجب أن ننعم بالسلام، وأن نحظى بالقانون والنظام"[105]. حمّل ترامب خصومه مسؤولية أعمال العنف وأشاد بمؤيديه: "لا يمكننا أن نكون ألعوبةً بأيدي هؤلاء الناس. يجب أن ننعم بالسلام. لذلك عودوا إلى بيوتكم. نحبكم؛ أنتم متميّزون للغاية". وعندما شرع الغوغاء بالتفرّق، أرسل تغريدة يدافع فيها عن تحرّكات مؤيديه الذين اقتحموا مبنى البرلمان وعملوا على تخريبه: "إنّها الأمور والأحداث التي تقع عندما يُسلب فوزٌ ساحقٌ مقدّس في الانتخابات بفظاظة وقسوة"[106]. واختتم تغريدته: "تذكّروا هذا اليوم إلى الأبد!". نعم، علينا أن نتذكّره لأنّه يُظهر زيف ديموقراطية الولايات المتحدة وكذلك زيف الاحتجاج الشعبويّ عليها. قليل من انتخابات الولايات المتحدة يتمتّع حقاً بالأهمية، مثل انتخابات حاكم كاليفورنيا في 1934 عندما خسر المرشّح الديموقراطيّ أبتون سنكلير Upton Sinclair لأنّ المؤسّسة بأكملها نظّمت حملة غير مسبوقة من الأكاذيب والتشهير (أعلنت هوليوود أنّها ستنتقل إلى فلوريدا في حال فوز سنكلير، وما إلى ذلك). لكنّ إخفاق ترامب في إعادة انتخابه معاكس لإخفاق سنكلير. إنّه إخفاق شخص يستحق الإخفاق تماماً.

105 "Trump Praises Supporters as 'Very Special' after Mob Storms the Capitol," *The Guardian*, January 6, 2021, https://www.theguardian.com/us-news/live/2021/jan/06/georgia-election-latest-news-senate-ossoff-warnock-democrats-republicans-trump-biden

Erik Pedersen, “Donald Trump Tweets About ‘Sacred Landslide Victory’,” *Deadline*, January 6, 2021, https://deadline.com/2021/01/donald-trump-speech-capitol-protest-go-home-election-was-/stolen-1234666061 106

الصورة التي ستبقى عن انتخابات الولايات المتحدة في 2020 هي صورة حشد غاضب غير راضٍ يهاجم البرلمان نيابةً عن رئيس يتمتّع بالشعبية حُرم سلطته نتيجة تلاعبات برلمانية... أيبدو هذا مألوفاً؟ بلى. كان ينبغي أن يحدث هذا في البرازيل أو بوليفيا، فهناك يكون لحشد من المؤيدين كامل الحق في اقتحام البرلمان وإعادة تنصيب الرئيس. أمّا في الولايات المتحدة، فكانت تجري لعبةٌ مختلفة كلّياً. إذاً لنأمل أن يوقف ما حدث في 6 كانون الثاني/ يناير على الأقل فجور الولايات المتحدة وهي ترسل مراقبين إلى بلدان أخرى للحكم على نزاهة انتخاباتها، فانتخابات الولايات المتحدة نفسها تحتاج اليوم إلى مراقبين أجانب. الولايات المتحدة دولة مارقة، وليس منذ صار ترامب رئيساً لها. تُظهر الحرب الأهلية المستمرة (تقريباً) شرخاً كان موجوداً دوماً.

قيد الحياة على المحكّ، فحركة كتلك وحدها يمكن أن (ربما) تنقذه. تذكّروا كلمات أغنية "Here's to You" [نخبكما] (كتبتها جوان بايز Joan Baez ولحّنها إنيو موريكوني Ennio Morricone)، وهي الأغنية الأصلية لفيلم Sacco and Vanzetti [ساكو وفانزيتي]: "نخبكما، يا نيقولا وبارت/ باقيان إلى الأبد هنا في قلوبنا/ اللحظة الأخيرة والنهائية لكما/ فهذا الاحتضار هو انتصاركما". أُقيمت تجمعات حاشدة في أرجاء العالم كافّة دفاعاً عن ساكو وفانزيتي، وثمّة حاجة إلى مثل هذه التجمعات الآن دفاعاً عن أسانج، وإن كان بأشكال مختلفة. من غير الممكن أن يموت أسانج حتّى لو وافته المنية (أو اختفى في غياهب زنزانة سجن في الولايات المتحدة كالأموات الأحياء)، فهذا الاحتضار سيكون انتصاره. سيموت ليحيا داخلنا جميعاً. هذه هي الرسالة التي علينا جميعاً أن نسلمها لأولئك الذين يمسكون مصيره بأياديهم: إن قتلتم رجلاً، فستخلقون أسطورة ستواصل تعبئة الآلاف.

الديموقراطيّ’ والإدانات الشريرة للاشتراكية“[112]. وكما ذكر إريك لندن Eric London فقد كانت في مقابلتها

Eric London, “Alexandria Ocasio-Cortez Denounces Socialists and Praises Biden Administration, Democratic Party,” World Socialist Web Site, March 25, 2021, https://www.wsws.org/en/articles/2021/03/26/aoc-m26.html 112

تقدّم ”الحزب الديموقراطيّ“ كأنّه تحوّل كلّياً إلى حزب الطبقة العاملة، وتقول إنّ إدارة بايدن والديموقراطيين الحاليين ”يتغيّرون تغيّراً جذرياً تامّاً باتجاه أكثر تقدّمية“. لقد فرض ضغط اليسار ”ما يقارب تغييراً جذرياً“ بين قادة الديموقراطيين الراسخين... العائق الوحيد أمام تحقيق كمال مؤسّسة الحزب الديموقراطيّ هو معارضة الجناح اليساريّ. هذه السياسية التي شقّت طريقها المهنيّ بانتقاد ”المؤسّسة الديموقراطية“ والوقوف مثل شخص غريب عنها حوّلت نفسها اليوم إلى أحد عتاة المدافعين عن المؤسّسة وخصم لَدود للنقّاد الخارجيين.

إذاً، على هذا المنوال، ترفض كورتيز النقد اليساريّ لبايدن بعدّه ”نقداً تمييزياً حقاً“[113] يُجيّش التمييز القديم والمريب للغاية بين ”نقدٍ حسن النية“ و”نقدٍ سيئ النية“. تحاجج: ”في وسع النقد السيئ النية أن يدمّر كلّ شيء بنيناه بسرعة... ليس لدينا الوقت أو الرفاهية لاستضافة الفاعلين السيئي النية في حركتنا“ (بالمناسبة، أتذكّر بوضوح هذا التمييز من أيام شبابي عندما كان الشيوعيون الذين يتولّون السلطة يعارضون بانتظام النقد ”البنّاء“ بالنقد الهدّام المعادي للاشتراكية). إن لم يكن لدينا الوقت ”لاستضافة الفاعلين السيئي النية في حركتنا“، أفلا يكون ذلك دعوةً خفية (ليست خفية جداً) للتطهير؟ تمضي كورتيز أبعد من ذلك، متّهمةً منتقدي بايدن اليساريين بإظهار ازدرائهم للفقراء والمضطهدين بانتقادهم الرئيس،[114] ثمّ إنها تغازل سياسات الهوية ضدّ ”الماهوّية (essentialism) الطبقية“ وتبعث من جديد خدعة اليسار الليبراليّ القديم القاضية باتّهام منتقديه اليساريين بأنّهم يخدمون اليمين: ”عندما تقول إنّ شيئاً لم يتغيّر، فأنت تصِف الأشخاص المحميين الآن من الترحيل بأنّهم ‘لا أحد’، ولا يمكننا السماح بذلك في حركتنا“[115] (لا عجب في أنّ النزاع بين كورتيز والاشتراكيين الديموقراطيين الآن يدفع إلى تدخّل الشرطة، مع تقارير إعلامية تفيد بأنّ ضباط الشرطة يحضرون إلى منازل مستخدمي ‘تويتر’“ الذين ينتقدون كورتيز على وسائط التواصل الاجتماعيّ).[116] لكنّ إستراتيجية كورتيز مزدوجة هنا لأنّها تنتقد في الوقت عينه إدارة بايدن لعدم الذهاب بعيداً بما يكفي في الاتفاقية البيئية الجديدة[117] ولعدم الاستثمار الكافي في تجديد البنية التحتية[118] وتسخر من الشروط ”البربرية“ التي فرضها بايدن على الحدود،[119] وهي بهذه الطريقة تتبع إستراتيجية متماسكة: تريد من اليسار

الراديكاليّ أن يضع ثقته وإيمانه بإدارة بايدن وأن يمارس في الوقت عينه "النقد الحسن النية" ويدفعه قُدُماً.

113 مذكور في:

London, "Alexandria Ocasio-Cortez Denounces Socialists."

114 المرجع نفسه.

115 المرجع نفسه.

116 "Police Officers Show Up at Twitter User's Home for Criticising Congresswoman AOC on Social Media, Her Spokesperson Denies Involvement," *OpIndia*, April 9, 2021, https://www.opindia.com/2021/04/usa-police-visit-twitter-user-for-criticising-congresswoman-aoc/

117 Danielle Kurtzleben, "Ocasio-Cortez Sees Green New Deal Progress in Biden Plan, but 'It's Not Enough,'" NPR, April 2, 2021, https://www.npr.org/2021/04/02/983398361/green-new-deal-leaders-see-biden-climate-plans-as-a-victory-kind-of

118 Ben Winck, "AOC Says Biden's Infrastructure Plan Is Way Too Small—She Wants a $10 Trillion Package," *Business Insider*, April 1, 2021, https://www.businessinsider.com/aoc-biden-infrastructure-spending-plan-trillions-housing-health-care-recovery-2021-4

119 Carl Campanile, "AOC Finally Slams Biden's 'Barbaric' Border Conditions, Says Families Deserve Reparations," *New York Post*, March 31, 2021, https://nypost.com/2021/03/31/aoc-slams-barbaric-us-border-conditions-under-biden/

تكمن المشكلة التي أراها في هذا الاستخلاص المنسوب إلى كورتيز في افتراضه الضمنيّ أنّ اليسار الراديكاليّ يمضي بعيداً في اتجاه "الماهوّية الطبقية" ويُغفل في النتيجة التقدّم النسويّ والمعادي للعنصرية الذي تمضي فيه إدارة بايدن، ولكن هل يدافع الحزب الديموقراطيّ حقاً عن أهمية هذين النضالين ضدّ اليسار الراديكاليّ؟ وألا يدعم أيضاً بعض النسويات الراديكاليات ومناصري حركة "حياة السود مهمة" المؤسّسة الديموقراطية؟[120] انشقّ قسمٌ من الحركة عن الحركة الأوسع تحديداً بسبب دعم الأخيرة لـ"الحزب الديموقراطيّ"، أو كما عبّروا عن ذلك "التحالف مع الحزب الديموقراطيّ هو التحالف ضدّ أنفسنا"[121]، فالانقسام بين المؤسّسة الديموقراطية واليسار الراديكاليّ لا علاقة له بقضية الماهويّة الطبقية.

120 بالمناسبة، لا بدّ من أن يلاحظ المرء هنا أنّ ترقية حركة "حياة السود مهمة" قتل رجال الشرطة السود إلى مرتبة الصورة النموذجية لعنف الدولة اليوم ليست بريئة بقدر ما يمكن أن تبدو عليه؛ تفيد القوة المذهلة لصور العنف المباشر هذه في التعتيم على العنف العنصري الأخطر والأوسع انتشاراً وغير المرئي إلى أبعد الحدود، الذي يُقرّه يومياً أعضاء المؤسّسة الليبرالية أنفسهم (أدين بنفاذ البصيرة هذا إلى أنجي سباركس Angie Sparks).

121 "'To Ally with the Democratic Party Is to Ally against Ourselves': BLM Inland Empire Breaks with BLM Global Network," *Left Voice*, February 4, 2021, https://www.leftvoice.org/blm-inland-empire-breaks-with-black-lives-matter-global-network

ما ينبغي توضيحه هنا أوّلاً أنّ النزاع – باستخدام اعتراض ماو تسي تونغ القديم – بين كورتيز واليسار الديموقراطيّ ليس "تناقضاً" بين الشعب وأعدائه وإنّما تناقض ضمن الشعب ذاته سيحلّه الحوار، وهذا يعني أنّه ينبغي– في حالتنا – ألّا يعامل أيّ طرف الطرفَ الآخر بوصفه عميلاً يعمل سراً لمصلحة العدو. لكن لنمضِ إلى السؤال الأساسيّ: من المصيب في هذا النزاع، أو أقلّه، من الأقلّ سوءاً؟ أميل إلى الإجابة عن هذا السؤال بصيغة ستالين القديمة: كلّ منهما أسوأ من الآخر؛ كيف على وجه التحديد؟

موقف اليسار الراديكاليّ – بمعنىً نظريّ محض – صحيح: بايدن ليس حلّاً على المدى البعيد، فالرأسمالية العالمية نفسها هي المشكلة في نهاية المطاف. غير أنّ بُعد النظر هذا لا يسوّغ في مطلق الأحوال ما يمكن أن يدعوه المرء انتهازية مبدئية؛ الموقف المريح لانتقاد كلّ تدبيرٍ تقدّميّ معتدل بوصفه غير كافٍ وانتظار حركة حقيقية لن تأتي بالطبع إطلاقاً. إذاً، كورتيز محقّة في أنّه لا يمكن نبذ بايدن بوصفه "ترامب بوجه إنسانيّ" (كما حاججتُ أيضاً)، فلا بدّ من دعم كثير من التدابير التي اتّخذتها إدارة بايدن أو اقترحتها، ومن ضمنها تخصيص مليارات الدولارات لمواجهة الجائحة والإنعاش الاقتصاديّ والوفاء بالالتزامات البيئية. كذلك، يجب أخذ تحرّك آخر لإدارة بايدن على محمل الجد وهو الإصلاح الضريبيّ الذي دافعت عنه وزيرة الخزينة جانيت يلين Janet Yellen التي تتبع بدقّة مقترح توماس بيكيتي بزيادة معدل الضرائب على الشركات في الولايات المتحدة من 21% إلى 28%، إضافة إلى ممارسة الضغط على المجتمع الدوليّ ليحذو حذوها ويرفع الضرائب إلى مستوىً مماثل... هذه هي "الماهويّة الطبقية" (دفعٌ باتّجاه عدالة اقتصادية) التي ينبغي أخذها على محمل الجد. أتفق مع كريس سيليزا Chris Cillizza في أنّ الكلمات الأكثر أهمية في خطاب بايدن في جلسة الكونغرس المشتركة في 28 نيسان/ أبريل 2021 هي: "أصدقائي الأميركيين... إنّ نظرية تقاطر المنافع من الأعلى إلى الأسفل لم تفلح أبداً"[122].

122 Chris Cillizza, "The Single Most Important Sentence in Joe Biden's Big Speech," CNN, April 29, 2021, https://edition.cnn.com/2021/04/29/politics/biden-speech-congress-sotu/index.html

ليس في وسعي هنا مقاومة الإشارة إلى أنّ هذه التدابير التقدّمية اقتُرحت في ردّ على سياسات ترامب والجائحة، أي ما كانت لتحدث لولاها. إذاً، كنتُ محقّا في ادّعاء أنّ عهد ترامب والجائحة سيمهّدان الدرب أمام سياسات أكثر تقدّمية.

ولكن إن كان كلّ من الموقفين المتعارضين (الموافقة على أجندة الحزب الديموقراطيّ والراديكالية اليسارية الخاوية) خطأً بذاته، أفلا يرقى الجمع بين الاثنين (الادّعاء بأنّه يتعيّن علينا تكتيكياً دعم بايدن رغم معرفتنا أنّ سياسته لن تفلح) إلى تلاعب خبيث؟ وفقاً لهذا لا نزال رسمياً داخل النظام لكنّنا في الواقع نتابع أهدافنا الأكثر غموضاً وتطرّفاً. غير أنّ حقيقة موقف مثل هذا عادةً ما

تكون عكسه: نعتقد أنّنا نتابع هدفاً متطرّفاً خفياً، لكنّنا في الواقع نتكيّف تماماً مع النظام، أو كما يقول دوين روسيل Duane Rousselle: "هذه المحاولة البراغماتية للحفاظ على الأهمية – للبقاء في مجال التأثير داخل الحزب الديموقراطي – هي تحديداً ما يجب علينا مساءلته"[123]. ورغم ذلك، لا أعتقد في الحقيقة أنّ إستراتيجية دعم بعض تدابير بايدن تتضمّن تلاعباً خبيثاً ولا أنّها تقتضي بالضرورة أن نظلّ عالقين داخل النظام. في إمكاننا دعم بعض تدابيره بطريقة "صادقة" تماماً ولكن بافتراض أنّها لا تمثّل إلّا الخطوة الأولى التي ستفضي بالضرورة إلى خطوات أخرى. هذه هي الحال لأنّ النظام العالميّ القائم لا يمكنه تحمّل هذه التدابير من دون خطوات جذرية إضافية، فإن كان إنفاق مليارات مثلاً على مكافحة الجائحة سيسفر عن أزمة مالية، فسيكون هنالك ضرورة لمزيد من التدابير الجذرية في مجال الرقابة المالية، وكلّ ما علينا فعله هو الإصرار على هذه التدابير لفرض تحقّقها بالكامل.

123 اتصال شخصي مع دوين روسيل.

إذاً لماذا كِلا طرفَي النزاع أسوأ من بعضهما بعضاً؟ يكمن جوهر المسألة في لوم "الماهويّة الطبقية" التي تخطئ في اعتقادي هدفها. الحريّ بنا بالطبع التخلي عن العبارة المبتذلة الماركسية القديمة القائلة إن نضال العمال هو النضال "الحقيقيّ" الوحيد، وينبغي وفقها للنضالات الأخرى جميعها (البيئيّ وتصفية الاستعمار والتحرّر الوطنيّ والنسويّ والمناهض للعنصرية وغيرها) أن تنتظر ويُتوقع أن تُحلّ تلقائياً إلى هذا الحدّ أو ذاك حالما نظفر بالنضال الأكبر. ولكن أكثر من ذلك أحاجج في أنّه يتعيّن علينا أن نقبل بالكامل "الماهويّة الطبقية" بشرط أن نستخدم مصطلح "الماهيّة" بالمعنى الهيغلي الصارم. ورغم أنّ ماو تسي تونغ لم يفهم حقاً جدل هيغل (انظر هجومه السخيف على نفي النفي)، فإنّ مساهمته الأساسية في الفلسفة الماركسية – توضيحاته بشأن مفهوم التناقض – هي على مستوى مفهوم هيغل عن الماهيّة، فالأطروحة الأساسية في نصه الرائع *On Contradiction* [**في التناقض**] التي تميّز بين "التناقضات الرئيسية وغير الرئيسية في عملية ما، والأطراف الرئيسية وغير الرئيسية لتناقض ما" تستحق قراءة متمعّنة. يتمثّل توبيخ ماو "للماركسيين أصحاب الجمود العقديّ" في أنّهم "لا يفهمون أنّه في خصوصية التناقض تكمن تحديداً عموميّته"، فيكتب:

> ففي المجتمع الرأسماليّ على سبيل المثال، تشكّل القوتان المتناقضتان – البروليتاريا والبرجوازية – التناقض الرئيسيّ، أمّا التناقضات الأخرى كالتناقض بين الطبقة الإقطاعية المتبقية والبرجوازية، والتناقض بين برجوازية الفلاحين الصغيرة والبرجوازية، والتناقض بين البروليتاريا وبرجوازية الفلاحين الصغيرة، والتناقض بين

الرأسمالية غير الاحتكارية والرأسمالية الاحتكارية، والتناقض بين الديموقراطية البرجوازية والفاشية البرجوازية، والتناقض بين البلدان الرأسمالية نفسها، والتناقض بين الإمبريالية والمستعمرات، فيقرّرها جميعاً ذلك التناقض الرئيسيّ أو يؤثّر فيها. عندما تشنّ الإمبريالية حرباً عدوانية على بلد مثل هذا البلد، يمكن لمختلف طبقاته – باستثناء حفنة من الخونة –تتحد مؤقّتاً كي تخوض غمار حرب وطنية ضدّ الإمبريالية، وحينئذٍ يصبح التناقض بين الإمبريالية وذلك البلد هو التناقض الرئيسيّ، في حين تصبح مؤقّتاً التناقضات جميعها بين مختلف الطبقات داخل ذلك البلد (بما فيها التناقض الرئيسيّ بين النظام الإقطاعيّ وجماهير الشعب الغفيرة) في مركز ثانويّ وتابع.[124]

.Mao Tse-Tung, *On Practice and Contradiction* (London: Verso Books, 2010), p. 87 124

هذه هي فكرة ماو الرئيسية: التناقض الرئيسيّ (العموميّ) لا يتداخل مع التناقض الذي يجب أن يُعامل بوصفه مهيمناً في وضع خصوصيّ؛ يكمن البُعد العموميّ حرفياً في هذا التناقض الخصوصيّ. في كلّ وضع بعينه، يُعَدّ التناقض المهيمن تناقضاً "خصوصياً" مختلفاً، بالمعنى الدقيق أنّه من أجل الانتصار في معركةِ حلِّ التناقض الرئيسيّ فلا بدّ من معاملة تناقض خصوصيّ بوصفه تناقضاً مهيمناً إذ تكون الصراعات الأخرى كافّة تابعة له. ففي الصين الخاضعة للاحتلال اليابانيّ، وجب أن تكون الوحدة الوطنية في مواجهة اليابانيين هي الأمر المهيمن إذا ما أراد الشيوعيون الظفر بالنضال الطبقيّ، وكان أيّ تركيز مباشر في هذه الشروط على النضال الطبقيّ يتعارض مع النضال الطبقيّ نفسه. ربما تكمن هنا السمة الرئيسية "لانتهازية أصحاب الجمود العقائديّ": الإصرار على مركزية التناقض الرئيسيّ في لحظة مخطئة. يمكننا أن نرى فوراً كيف ينطبق هذا المفهوم على تعدّدية النضالات حالياً. تعني "الماهويّة الطبقية" اليوم معاملة النضال الطبقيّ ليس بوصفه ماهيّة ثابتة وإنّما بوصفه مبدأ فوق مقرِّر ينظِّم التفاعل الديناميّ بين نضالات متعدّدة. اليوم في الولايات المتحدة على سبيل المثال، لا يمكن التحدّث عن النضال الطبقيّ دون استحضار ما يتعرّض له السود من اضطهاد واستغلال. فالتركيز على النضال الطبقيّ "الصرف" بمعزل عن العِرق يخدم في نهاية المطاف الاضطهاد الطبقيّ.

قدّم موريزيو لازاراتو Maurizio Lazzarato أخيراً حجّة ضدّ "الماهويّة الطبقية"[125] يشير فيها إلى شعار الناشطة النسوية الإيطالية كارلا لونزي Carla Lonzi: "لنبصق على هيغل". يشدّد نصّ إبداعيّ من نصوص النسوية الإيطالية، *Sputiamo su Hegel* [لنبصق على هيغل] للونزي (1970)،[126] على الطابع الأبويّ لجدل هيغل ونظرية الاعتراف ويوسِّع نطاق هذا النقد الضاري لهيغل وصولاً

إلى الماركسية. إلى جانب تركيز لونزي على الإنتاج والتنظيم الاجتماعيّ الهرميّ والسلطة، إن موقعها السياسيّ في شكل حزب يمثّل قاعدتها، ونقدها يختلف مع النظرة الماركسية للتاريخ بوصفه تقدّماً جدلياً على مراحل، إذ "يُحتجز" السود والنساء في "المراحل" الدنيا ولا تتمكّن النساء في نهاية المطاف من إحراز وعي الذات إلّا إذا التحقن بالمنطق الإنتاجويّ الذكوريّ.[127] ترفض لونزي هذه الرؤية بمجملها بوصفها لا تتوافق مع ثورة أصيلة؛ "تمثّل العملية الثورية قفزة، انقطاعاً غير جدليّ في تسلسل التاريخ سينفتح على ابتكار واكتشاف شيء لم يكن التاريخ يحتويه".[128]

125 انظر:

Maurizio Lazzarato, *Capital Hates Everyone: Fascism or Revolution*, trans. Robert Hurley (South Pasadena, CA: Semiotext(e), 2021).

126 متاح على الرابط:

http://blogue.nt2.uqam.ca/hit/files/2012/12/Lets-Spit-on-Hegel-Carla-Lonzi.pdf

127 Lazzarato, Capital Hates Everyone, p. 221.

128 المرجع نفسه، ص. 222.

فكرة لازاراتو هنا لا تعني أنّه يجب رفض الرؤية الماركسية ببساطة وإنّما أنّ نضال العمال والنضال النسويّ يخضعان لمنطقين مختلفين. وفقاً لتفسير لازاراتو للنقد النسويّ "لمركزية علاقات القوّة وعموديتها في 'الحزب'"، لا بدّ أن تبتكر المرأة ديموقراطيةً راديكاليةً كي تصبح موضوعاً سياسياً مستقلاً.[129] في وسع علاقات جديدة – أفقية وغير هرمية – توفير أساس لوعي جمعيّ خاصّ بالمرأة؛ "إنّ مفهوم وممارسة 'التمثيل' والتفويض غائبان ما دامت المشكلة لا تكمن في الاستيلاء على السلطة ولا إدارتها".[130] ينبغي أن تتخلّى المرأة عن "وعود التحرّر بالعمل وبالصراع على السلطة التي تُعَدّ قيماً للثقافة الأبوية (والحركة العمالية). لا تطالب الحركة النسوية بأيّ مشاركة في السلطة ولكنّها على العكس تماماً تطالب بإدراج مفهوم السلطة والاستيلاء عليها في النقاش".[131]

129 المرجع نفسه، ص. 218.

130 المرجع نفسه، ص. 218.

131 المرجع نفسه، ص. 222.

لازاراتو على بيّنة من شِراك الماهويّة النسوية أو المناهضة للاستعمار. في حالة الماهويّة المناهضة للاستعمار "يصبح العدو أوروبا بحدّ ذاتها؛ تختفي الرأسمالية تحت غطاء الانقسام العرقيّ. ستشهد هذه الالتباسات تكراراً مؤسفاً في التفكير ما بعد الاستعماريّ لأنّ الثورة ستُلغى بالكامل".[132] إذاً،

ينبغي ألّا تَحلّ الماهويّة النسوية ببساطة محلّ الماهويّة الطبقية (حيث يكون اضطهاد النساء الشكل الأساسيّ للاضطهادات كافّة) أو الماهويّة المناهضة للاستعمار (الاستغلال والهيمنة الاستعماريين بوصفهما مفتاحاً لاستغلال الآخرين جميعاً والهيمنة عليهم). يؤكّد لازاراتو بالأحرى تعدّدية النضالات التحرّرية غير القابلة للاختزال وترداد الصدى بينها. الحريّ بنا هنا الاستشهاد بالمؤلفين المجهولين لكتاب *The Coming Insurrection* [التمرّد القادم]: "الحركات الثورية لا تنتشر بالعدوى بل بترداد الصدى/ شيء ما يتشكّل هنا بترديد صدى موجة الصدمة المنبعثة من شيء تشكّل هناك..."[133].

132 المرجع نفسه، ص. 221.

133 The Invisible Committee, *The Coming Insurrection* (South Pasadena, CA: Semiotext(e), 2009), p. 12.

كيف يحدث ترداد الصدى هذا بين النضال النسويّ ونضال العمال؟ هل يعلق نضال العمال بالضرورة في نموذج الإنتاجوية المتّسم بالمركزية؟ أم أنّ في وسع شكل النسوية المتّسمة باللامركزية أن تردّد صداها فيه؟ وهل في وسع النسوية المعاصرة أن تتلاءم حقاً مع معاداةٍ للاستعمار تحترم التقاليد السابقةَ للحداثة لتشكيل جبهة موحَّدة ضدّ التنظيم والإنتاج الحديثين؟ أليس صحيحاً بالأحرى أنّه ليس للنسوية الحديثة علاقة بالنماذج السابقة للحداثة لكنّها معادية لها بثبات؟ غير أنّ السؤال الأساسيّ هنا هو: هل التناحر الطبقيّ هو في الواقع مجرد تناحر في سلسلة من ضروب التناحر؟

هنالك دعابة طريفة من ألمانيا تحكي عن نقاش يجري بين تقدّمي هوياتيّ (identitarian) وماركسيّ: يقول الهوياتيّ: "نوع اجتماعيّ" فيردّ الماركسيّ: "طبقة". يقول الهوياتيّ: "نوع اجتماعيّ، عِرق" فيردّ الماركسيّ: "طبقة، طبقة". يقول الهوياتيّ: "نوع اجتماعيّ، عِرق، طبقة" فيردّ الماركسيّ: "طبقة، طبقة، طبقة"... رغم أنّه يُفترض بالدعابة أن تسخر من موقف الماركسيّ لكنّه محقّ في الواقع؛ تتمثّل الحقيقة في تكرار قوله في أنّ الطبقة (النضال الطبقيّ) تحدّد بلا نقاش مجمل الهويات الاجتماعية.[134] عندما يقول هوياتيٌّ: "هوية إثنية"، يحلل ماركسيّ كيف أنّ النضال الطبقيّ يتخلّل هذه الهوية، وكيف أنّها تُدرج في الكلّ الاجتماعيّ وتُستبعد منه، وما الامتيازات والمعوقات التي تواجهها (المهن وفرص التعليم المفتوحة لها أو المغلقة عليها) وما شابه. بالمثل، إنّ تحليلَ ماركسيٍّ لاضطهاد النساء ينظر في كيف أنّ إعادة الإنتاج الرأسمالية في بلد ما يعتمد على عملهن غير المأجور وإلى أيّ مدىً يُديم تموضعهنّ في عملية التنشئة الاقتصادية والاجتماعية حريتهنّ واستقلاليتهنّ أو يحول دونها، وإذا ما كانت أجزاءٌ من النضال النسويّ التي تهيمن عليها قيم الطبقة الوسطى هي نسويةً حقاً.

134 أدين بهذه الدعابة، وكذلك مجمل هذا المسار من التفكير، إلى محادثة مع أرنو فرانك Arno Frank.

يُهدر هذا الدور الخاص من النضال الطبقيّ عندما تُختزل الطبقة العاملة بمجموعة اجتماعية من بين مجموعات اجتماعية أخرى لا بدّ من حماية هويتها. في وسع المرء أن يشهد في ألمانيا وبلدان أخرى الظهور الحديث لمفهوم غامض يُدعى "نزعة طبقية"، وهو أساساً نسخة طبقية عن سياسة الهوية. يتعلّم العمال أن يحموا ويعزّزوا ممارساتهم الثقافية الاجتماعية واحترام الذات، مؤكّدين وعيهم بالدور الحاسم الذي يؤدّونه في التنشئة الاجتماعية. إذاً تصبح حركة العمال عنصراً آخر في سلسلة الهويات، على غرار إثنية بعينها أو توجّه جنسيّ بعينه. مثل هذا "الحلّ لمشكلة العمال" هو ما يميّز الفاشية والشعبوية وهو يسبغ الاحترام على العمال ويعترف بأنّهم يتعرضون في كثير من الأحيان للاستغلال وكذلك يُعرب عن رغبته (غالباً بصدق) في تحسين أوضاعهم ضمن شروط النظام القائم. لقد دعا ترامب بوضوح على سبيل المثال إلى حماية العمال في الولايات المتحدة من المصارف والمنافسة الصينية المجحفة.

يتمثّل آخر مثال في ميدان السينما عن "نزعة طبقية" مثل هذه في فيلم Nomadland [أرض الرُحَّل] (كلوي جاو Chloe Zhao، 2020) الذي يصوّر الحياة اليومية "للبروليتاريا المترحلة" في بلدنا: عمال ليست لديهم بيوت دائمة يعيشون في عربات مقطورة ويتنقلون في الجوار من عمل مؤقّت إلى آخر، ويُعرَضون كأشخاص محترمين مفعمين بالطيبة العفوية وتضامن واحدهم مع الآخر، ويقطنون عالمهم الخاص المكوّن من عادات وتقاليد محدودة، ويتمتّعون بسعادتهم المتواضعة (حتّى العمل الموسميّ في مركز تعبئة وتغليف سلع شركة Amazon يمضي على خير ما يرام...) على هذا النحو، تودّ أيديولوجيتنا المهيمنة رؤية العمال. لا عجب في أنّ الفيلم كان الفائز الأكبر في جوائز الأوسكار الأخير. ورغم أنّ حياة الناس المصوّرة أميَل إلى البؤس، فالفيلم يدفعنا للاستمتاع بالتفاصيل الساحرة لطريقة عيش العمال الخاصة إذ كانت الرسالة الضمنية: تمتّعوا بأن تكونوا بروليتاريا مترحّلة!

ما يحدّد هويّة حركة العمّال الأصيلة هو على وجه التحديد رفض أن تكون عنصراً في سلسلة الهويات. التقيت في الهند ممثّلين عن الفئة الأدنى في الطبقة المغلقة الأدنى للمنبوذين: منظفو المراحيض الجافة. سألتهم عن المنطلق الأساسيّ في برنامجهم وما الذي يريدونه؟ فكان ردّهم الفوريّ: "نحن لا نريد أن نكون أنفسنا، ما نحن عليه". نجد هنا حالةً مثاليةً لما أطلق عليه هيغل وماركس: "التصميم المعارِض": التناحر الطبقيّ الجامع الذي يتخلّل المجال الاجتماعيّ بأسره ويجد نفسه واحداً من أنواعه في طبقة العمال الذين – وفقاً لجاك رانسيير Jacques Rancière – هم "جزء من لا جزء" من الجسد الاجتماعيّ الذي يُفتقر فيه إلى مكان ملائم، أي تناحرٌ مجسّد.

إذاً ما الذي يعنيه الصراع الطبقيّ في الهند في أيار/ مايو 2021، حيث سجّل عدد الإصابات اليومية الجديدة بكورونا في البلد رقماً قياسياً؟ أرونداتي روي

Arundhati Roy محقّة في قولها إنّنا في الهند "نشهد جريمة ضدّ الإنسانية"[135].
لكنّ الدرس هنا ليس مجرّد درس إنسانيّ إذ ينبغي لنا أن ننسى الصراعات السياسية ونواجه بقوانا كافّة الكارثة الصحية، وعلينا كي نواجه الكارثة الصحية بكلّ قوّة إدخال كثير من أطراف الصراع الطبقيّ على الصعيدين العالميّ والمحليّ. لم نسمع إلّا حالياً – بعدما فات الأوان بالفعل – دعوات إلى البلدان المتقدّمة لمساعدة الهند. غالباً ما يعمل التضامن الدوليّ على شاكلة الزوج الذي يُضرب به المثل بأنّه ينتظر قيام زوجته بأعمال المطبخ ثمّ يعرض عليها بسخاء – عندما يتأكد أنّ عملها شارف على الانتهاء – مدّ يد العون. أُعلن أنّ الهند هي "صيدلية العالم" لتصديرها الأدوية، لكن الآن وقد أصبحت محتاجةً يواصل الغرب المتقدّم نزعة قومية في التعامل مع الجائحة بدلاً من تعبئة "شيوعية" شاملة وإسعافية لاحتواء الجائحة هناك. كذلك علينا أن نعترف بالأسباب الداخلية الواضحة: إنّ الهند "أنقذت العالم – البشرية بأسرها – من مأساة كبرى نتيجة سيطرتها الفعّالة على كورونا"، كما تباهى رئيس الوزراء مودي Modi في كانون الثاني/ يناير.[136] غير أنّ سياساته ذات النزعة القومية لم تتجاهل من الناحية الجنائية التحذيرات من مخاطر موجة جديدة من الإصابات فحسب، بل إنّه واصل هجومه المعادي للمسلمين (ضمن اللقاءات الانتخابية العلنية الكبيرة)، وهكذا أضاعت الهند فرصة فريدة لحشد تضامن إسلاميّ-هندوسيّ في مكافحة الجائحة.

Arundhati Roy, "'We Are Witnessing a Crime Against Humanity': Arundhati Roy On India's Covid Catastrophe," *The Guardian*, April 28, 2021, https://www.theguardian.com/news/2021/apr/28/crime-against-humanity-arundhati-roy-india-covid-catastrophe 135

Julia Hollingsworth, "Prime Minister Narendra Modi Could Have Prevented India's Devastating Covid-19 Crisis, Critics Say. He Didn't," CNN, May 1, 2020, https://edition.cnn.com/2021/04/30/india/covid-second-wave-narendra-modi-intl-hnk-dst/index.html 136

ولكن ألا ينطبق الأمر عينه على الاتجاه المعاكس؟ ألا تتخلّل التوتّرات الجنسية والعرقية التناحرَ الطبقيّ أيضاً؟ علينا أن نرفض هذا الحلّ لسبب محدّد: هنالك فارق شكليّ بين التناحر الطبقيّ وضروب التناحر الأخرى. في حالة ضروب التناحر في العلاقات القائمة بين الجنسين والهويات الجنسية، لا يهدف النضال من أجل التحرّر إلى القضاء على بعض الهويات وإنّما في خلق شروط تعايشها الودّي، وينطبق الأمر عينه على التوتّرات بين الهويات الإثنية أو الثقافية أو الدينية؛ يتمثّل الهدف في تحقيق تعايشها السلميّ الاعترافَ والاحترام المتبادلين في ما بينها. أمّا الصراع الطبقيّ، فلا يعمل بهذه الطريقة، إذ إنّه لا يهدف إلى الاعتراف والاحترام المتبادلين إلّا في نسخه الفاشية أو النقابوية. الصراع الطبقيّ تناحرٌ "محض": إنّ هدف المضطهَدين والمستغَلين

هو القضاء على الطبقات بحدّ ذاتها وليس المصالحة في ما بينها.[137] هذا هو السبب في أنّ الصراع الطبقيّ "يردّد صداه" في صراعات أخرى بطريقة مختلفة عن تلك التي تردّد فيها تلك الصراعات صداها فيه، فهو يُدخل في الصراعات الأخرى عنصراً من التناحر اللدود.

137 ثمّة مشكلتان أخريان لا بدّ من معالجتهما هنا: التناحر الجنسي والسلطة. أرى أنّ التناحر الجنسي مقوّم من مقوّمات الجنسانية، أي لا سبيل لإظهار علاقة جنسية غير تناحرية، وأنّ علاقات القوّة والهيمنة تسبق التمييز الطبقي ولا يمكن اعتبارها أحد آثار الاستغلال الاقتصادي. فقد ظهر النظام الأبوي والهيمنة الاجتماعية في وقت سابق، مع صعود مجتمعات العصر الحجري الحديث، وغفل ماركس عن أهمية هذا الانقطاع.

هكذا نتبيّن الآن السبب في أنّ كلا الطرفين، في النزاع بين كورتيز والاشتراكيين الديموقراطيين الراديكاليين، مخطئان رغم أنّ كلاً منهما مصيب في مواجهة الآخر. ما يشترك به الطرفان هو خطر الوقوع في الانتهازية: انتهازية نفعية من جانب (خطر الوقوع في الفضاء المهيمن والعمل كملحق "راديكاليّ" له)، وانتهازية مبدئية من جانب آخر (خطر رفض أيّ مشاركة كحلّ وسط وانتقاد الواقع بهذه الطريقة من مسافة آمنة). ما يفوت كلا الطرفين هو الوحدة الجدلية الصحيحة للنظرية والممارسة التي لا تسوّغ فيها النظرية تدابير محدّدة فحسب، بل تُشرعن لنا أيضاً التدخّل "عشوائياً" في وضع لا يتّسم بالشفافية، ما يجعلنا ندرك أنّ ذلك الوضع قد يتغيّر بطريقة غير متوقّعة نتيجة تدخّلنا. وكما قال ماكس هوركهايمر منذ عقود، وهو ما ينبغي أن يكون شعار اليسار الراديكاليّ الحقيقيّ: "تشاؤمٌ في النظرية، تفاؤلٌ في الممارسة".

أبناءه في الريح" لإحداث اضطراب شديد سيتسبّب في موت الصبيّ. ولكن كيف؟ ليس بتحطيم الطائرة فحسب، بل كذلك بمطاردة روح الصبيّ مباشرة: "جوقة تهطل من الغيوم/ تتسلّل إلى الأذن الصغيرة/ تعالَ إلى هنا، ابقَ هنا/ سنُحسن معاملتك/ نحن إخوتك". لم يكن صوت الشيطان صرخةً وحشية بل همساً رخيماً حنوناً.

هذا الإبهام حاسمٌ: تُضاعف التهديد الخارجيّ الصريح جوقة من الأصوات المغوية لا يسمعها إلّا الصبيّ. يقاوم الصبيّ إغواءَ الاستسلام لهذه الأصوات، لكنّ الأب يضمّه بقوّة لحمايته من غير أن يلاحظ تقطّع أنفاسه وهكذا "يدفع روح الصبيّ للخروج من جسده" (لاحظوا النهاية المبهمة للأغنية: لا تقول الكلمات أبداً إنّ الطائرة سقطت فعلاً. لا تذكر سوى حدوث اضطراب شديد). يريد الأب (من الواضح أنّه يمثّل الدالاي لاما) حماية ابنه من تهديدٍ (اضطراب واقعيٍّ خارجيّ، لكنّه من فرط حمايته لابنه يقتله. ثمّة تطابق أعمق هنا بين الدالاي لاما و"ملك الرياح". يتمثّل الإيحاء الواضح في أنّ الحماية البوذية من الألم والمعاناة تُميتنا، وتستبعدنا من الحياة. إذاً، مفاد رسالة أغنية "الدالاي لاما"– باستخدام العبارة الساخرة الشهيرة المقتبسة من الأبيات الأولى[138] من النشيد الوطنيّ لجمهورية ألمانيا الديموقراطية – هو فعلياً: "Einverstanden mit Ruinen / Und in Zukunft abgebrannt" ("توافقوا مع الركام/ واحرقوه في المستقبل")[139].

[138] العبارة الأصلية في النشيد: "انهضوا من الركام/ وتوجهوا نحو المستقبل". (م.)

[139] Roberto de la Puente, "Einverstanden mit Ruinen (Agree with Ruins)," paperblog, originally published December 11, 2012, https://de.paperblog.com/ einverstanden-mit-ruinen-472883/

رغم ذلك تضفي الأغنية على هذه الحكمة التشاؤمية النمطية انعطافاً إضافياً يتمثّل في اللازمة المركزية في الأغنية: "Weiter, weiter ins Verderben / Wir müssen leben bis wir sterben" ("إلى مزيد من الخراب/ علينا أن نحيا إلى أن نموت"). هذا ما دعاه فرويد "دافع الموت" في أنقى صوره، ليس الموت نفسه وإنما حقيقة أنّ علينا أن نحيا إلى أن نموت، هذه الإطالة اللانهائية للحياة، هذا الدافع القهريّ اللانهائي للتكرار. اللازمة هي ما تُدعى بالفرنسية lapalissade (حكمة مكرورة فارغة مثل "قبل لحظة من وفاة السيد لا باليس، كان لا يزال حياً"). لكنّ فرقة Rammstein تلتفّ على الحكمة الواضحة: "مهما طال عمرك، ففي النهاية ستموت"، وتُحلّ محلّها: "إلى أن تموت، عليك أن تحيا". ما لا يجعل نسخة الفرقة تكراراً فارغاً هو البُعد الأخلاقيّ: قبل أن نموت لسنا مجرّد أحياء (بالطبع)، فعلينا أن نحيا. الحياة بالنسبة إلينا نحن البشر قرارٌ، التزامٌ إيجابيّ، إذ يمكننا أن نفقد إرادة العيش.

هذا الموقف "علينا أن نحيا إلى أن نموت" هو الموقف الصحيح الواجب علينا أن نعتمده اليوم بما أنّ الجائحة تذكّرنا جميعاً بمحدوديتنا وفنائنا، وكيفية اعتماد

حياتنا على تفاعل مبهم بين (ما يبدو لنا) حالات طارئة. المشكلة الحقيقية كما نختبرها يومياً تقريباً لا تكمن في أنّنا قد نموت وإنّما في أنّ الحياة تستمرّ في حالة من عدم اليقين وتتسبّب في إحباط دائم وفقدان إرادة المضيّ قُدُماً. يجعلنا الافتتان بكارثة شاملة ونهاية حضارتنا مُشاهدين يتمتّعون مَرَضياً بتلاشي الحياة الطبيعية. غالباً ما يغذّي إحساسٌ زائفٌ بالذنب (الجائحة بوصفها عقاباً على طريقة عيشنا الفاسدة، وما شابه) هذا الافتتانَ. أمّا مع بشائر اللقاح وانتشار متحوّرات جديدة للفيروس، فنحن نعيش في حالات إغلاق مؤجّلة إلى ما لا نهاية. لاحظوا كيف يتغيّر الإطار الزمنيّ للمَخرج: في الربيع، تحدّثت السلطات في أحيانٍ كثيرة عن تطوّرات من حيث تغيّرات طفيفة مقدارها أسبوعان ("بعد أسبوعين، من المفترض أن يصبح الوضع أفضل")، ثمّ في خريف 2020، أصبحت شهرين، ثم تُقارب نصف عام (في صيف 2021، أو ربما بعد ذلك، ستبدأ الأمور في التحسّن). سُمعت أصوات أخرى ترجئ بالفعل نهاية الجائحة إلى 2022 وحتّى 2024... كلّ يوم يحمل أخباراً: اللقاحات فعّالة على متحوّرات جديدة، أو ربما ليست كذلك. لم يكن اللقاح الروسيّ Sputnik V فعّالاً في البداية لكنّه يبدو كذلك الآن. هنالك تأخيرات كبيرة في إمدادات اللقاح لكنّ معظمنا سيتلقى اللقاح بحلول الصيف... من الواضح أنّ هذه التذبذبات التي لا تنتهي تولّد لذّاتها الخاصة التي تيسّر علينا النجاة من بؤس حياتنا أيضاً.

كما الحال في أغنية "الدالاي لاما"، يُمثّل مرض فيروس كورونا الاضطراب الذي مزّق حياتنا اليومية. ما الذي أثار غضب آلهة اليوم؟ لقد شعروا بالإهانة من تلاعباتنا في مجال الوراثة الحيوية وتدميرنا البيئة. ولكن من الدالاي لاما في واقعنا؟ بالنسبة إلى كثيرٍ من أولئك الذين يحتجون على الإغلاق والتباعد الاجتماعيّ، يتمثّل الدالاي لاما الذي يتظاهر بحمايتنا لكنّه في الواقع يخنق حرياتنا الاجتماعية في جوهر الإجراءات الوقائية التي تُنفّذ لمكافحة الجائحة. نَظَم جورجيو أغامبين حديثاً قصيدة قصيرة بعنوان "Si è abolito l'amore" [لو أُلغي الحب]، توضّح موقفه من هذه الإجراءات:[140]

[140] Giorgio Agamben, "Si è abolito l'amore," Quodlibet, November 6, 2020, https://www.quodlibet.it/giorgio-agamben-si-bolito-l-amore

لو أُلغي الحب/ باسم الصحة/ فالصحة ستلغى أيضاً.
لو أُلغيت الحرية/ باسم الطب/ فالطب سيلغى أيضاً.
لو أُلغي الإله/ باسم العقل/ فالعقل سيلغى أيضاً.
لو أُلغي الإنسان/ باسم الحياة/ فالحياة ستلغى أيضاً.
لو أُلغيت الحقيقة/ باسم المعلومة/ فلن تلغى المعلومة.
لو أُلغي الدستور/ باسم حالة الطوارئ/ فلن تلغى حالة الطوارئ.

كلّ شيء مغلوط بصدد هذه المتحوّرات بالحكمة عينها. أوّلاً، التوقعان الأخيران مخطئان: لو أُلغيت الحقيقة، فستلغى المعلومة أيضاً لأنّ المعلومة لا تعمل إلّا على خلفيةِ حقيقة، على خلفية أفق يحدّد كيفية فهم المعلومة. ولو أُلغي الدستور، فستلغى حالة الطوارئ أيضاً لأنّ حالة الطوارئ لن تعود طوارئ وإنّما حالة طبيعية جديدة. ثانياً تناظُر الأبيات الأربعة الأولى زائف: الحب بمعناه الأصليّ غير صحيّ، مثلما يشكّل الوقوع في الحب رضّاً مؤلماً يُخلّ بتوازن حياتنا اليومية. إذاً الحب نفسه هو الذي يلغي الصحة قبلاً. لو أُلغي الطب باسم الحرية، فالحرية الوحيدة المتبقية هي حرية الموت. الإله والعقل: أيّ عقل؟ هنالك تصوّر للعقل لا يحتاج إلهاً لكنّه بعيد عن الحتمية الطبيعانية العامّة. فكّروا فحسب في الفيزياء الكَمّية... وأيّ إله؟ كتب أغامبين: ”ما الذي سيكونه إله لا تُوجّه إليه الصلوات والتضحيات؟“ علينا بوصفنا من أتباع لاكان أن نقلب السؤال: ما الذي ستكونه تضحية لا توجّه إلى إله؟ أهنالك تضحية لا تفترض قبلاً شخصية الآخر المتعالي؟ مرّة أخرى، إجابة لاكان هي: بلى، إنّها التضحية التي تُدعى ”الإخصاء الرمزيّ“، تضحية هي بحدّ ذاتها فعل إيجابيّ، إيماءة تفسح المجال أمام سَعة عيش جديدة. وأخيراً الإنسان والحياة: ألا يكمن الخطر اليوم بالأحرى في إلغاء الحياة باسم الإنسان، باسم تصوّر بعينه عن حرية الإنسان وكرامته (مثل أخلاقيات الحرب) يمكن أن يؤدّي إلى تدمير ذاتيّ كلّيّ؟ سأعبّر عن حجتي المضادة بصيغة أغامبين: ”لو أُلغي الطب باسم الحرية، فستُلغى الحرية أيضاً. لو أُلغيت الحياة باسم الإنسان، فسيُلغى الإنسان أيضاً“.

تُحدّد عبارة Rammstein ”علينا أن نحيا إلى أن نموت“ مَخرجاً من هذا المأزق: مكافحة الجائحة ليس بالانسحاب من الحياة وإنّما بالعيش بمنتهى القوّة. أهنالك من هو أكثر حياة اليوم من ملايين العاملين في مجال الرعاية الصحية الذين يخاطرون بوعيٍ كامل بحيواتهم يومياً؟ لقد لقي كثيرون منهم حتفهم لكنّهم ظلّوا أحياءً إلى أن وافتهم المنية. لا يقتصر الأمر على أنّهم يضحّون بأنفسهم من أجلنا، بل إنّهم حتّى أقلّ من أجهزة إبقاء على الحياة اختُزلت بحياة عارية. إنّهم اليوم أولئك الأكثر حياةً من غيرهم.

الجماعة الأقوى فيها. عُدّ الاتحاد الأوروبيّ غير فعّال وعاجزاً عن تنظيم عمليات تطعيم سريعة، واستسلمت أوروبا تدريجياً لنزعة قومية في توزيع اللقاحات. في الوقت عينه، اتُّهمت أوروبا بتفضيل سكانها والتغافل عن مساعدة بلدان العالم الثالث المعدمة (علينا على الأقل أن نعترف هنا بأنّ تأخر الاتحاد الأوروبيّ في إجراء عمليات التطعيم كان الثمن الذي دفعه مقابل موقفه المبدئيّ بصدد التوزيع العادل للقاحات بين أعضائه كافّةً).

كذلك، ينبغي للمرء أن يضع نصب عينيه أنّ المدافعين عن أوروبا منقسمون وفق الأسس عينها: لدينا النظرة "التكنوقراطية" لأوروبا بوصفها عاملاً فعالاً آخر في الرأسمالية العالمية، والنظرة الليبرالية إلى أوروبا بوصفها فضاء بارزاً لحقوق الإنسان والحريات، ولدينا النظرة المحافظة لأوروبا بوصفها اتحاد هويات قومية صلبة... كيف نوجّه أنفسنا في هذه البلبلة؟ من السهولة التمييز بين مختلف ملامح أوروبا، الشرّيرة منها والخيّرة، بتبنّي موقف نرفض فيه أوروبا التي أنجبت الاستعمار الحديث والعنصرية والعبودية، في حين نؤيد أوروبا حقوق الإنسان والانفتاح المتعدّد الثقافات. يُذكّر حلّ مثل هذا بسياسيّ أميركيّ من حقبة حظر الكحول الذي أجاب حين سُئل عن موقفه من شرب الخمر: "إن كنت تقصد بالخمر ذلك المشروب الذي يجعل أمسية مع الأصدقاء رائعة، فأنا معه تماماً. أمّا إن كان المقصود من الخمر الويلات التي تسبب العنف المنزليّ وتجعل الناس متعطلين عن العمل ومنحطين، فأنا أعارضه بالكامل!". بلى، أوروبا تصوّرٌ معقد زاخر بالتوتّرات الداخلية، لكن علينا أن نتّخذ قراراً واضحاً وبسيطاً: هل لا يزال في وسع "أوروبا" أنّ تظلّ مفيدة بوصفها دالّة حاكمة بتعبير لاكان، اسماً من الأسماء التي ترمز إلى ما يمثّله الكفاح في سبيل التحرّر؟

تتمثّل أطروحتي في أنّه الآن على وجه التحديد – أوروبا آخذة في الانحدار وإرثها يتعرّض لأقوى الهجمات – يتعيّن على المرء أن يتّخذ قراراً لمصلحة أوروبا. فهذه الهجمات لا تستهدف أساساً إرث أوروبا العنصريّ والمحافظ، بل الإمكانية التحرّرية الفريدة من نوعها في أوروبا: الحداثة العلمانية والتنوير وحقوق الإنسان والحريات والتضامن الاجتماعيّ والعدالة والنسوية... لا يقتصر سبب وجوب التمسّك باسم "أوروبا" على أنّ السمات الحسنة تطغى على السمات السيئة، بل يتمثّل السبب الأساسيّ في أنّ الإرث الأوروبيّ بذاته يوفّر الأدوات النقدية المثلى لتحليل ما حدث من خطأ في أوروبا. هل يدرك أولئك الذين يعارضون "المركزية الأوروبية" أنّ المصطلحات التي يستخدمونها في نقدهم هي بجوهرها جزءٌ من الإرث الأوروبيّ؟

من الواضح أنّ التهديد الأوضح للإمكانية التحرّرية تلك يأتي من الداخل، من شعبوية اليمين الجديد التي تهدف إلى تدمير الإرث التحرّريّ الأوروبيّ. أوروبا اليمين هي أوروبا الدول القومية المصمِّمة على الحفاظ على هوياتها المميِّزة. عندما زار ستيف بانون فرنسا منذ بضعة أعوام، ألقى خطاباً أنهاه بالكلمات

التالية: ”ليبارك الرب أميركا وتحيا فرنسا!“[141]. تحيا فرنسا، تحيا إيطاليا، تحيا ألمانيا... ولكن ليس أوروبا. حريّ بنا أن ننتبه إلى أنّ هذه النظرة إلى أوروبا تتضمّن وضع خرائط مختلفة كلّياً لفضائنا السياسيّ.

141 David Reid, “Bannon Tells French Far-Right: Let Them Call You Racist,” CNBC, March 12, 2018, https://www.cnbc.com/2018/03/12/steve-bannon-tells-france-right-wing-to-embrace-racist-tag.html

لاحظ المحافظ العظيم توماس سترينز إليوت في كتابه *Notes Towards the Definition of Culture* [**ملاحظات نحو تعريف الثقافة**] أنّ هنالك لحظات يكون الخيار الوحيد فيها هو خيار بين الطائفية وعدم الإيمان، عندما تكون الطريقة الوحيدة لإبقاء الدين حيّاً هي إحداث انشقاق طائفيّ عن جثمانه الأصليّ. ذلكم خيارنا الوحيد اليوم: لا نستطيع الإبقاء على إرث أوروبا حيّاً إلّا بـ”انشقاق طائفيّ“ عن النسخة الديموقراطية الليبرالية العادية للإرث الأوروبيّ باستئصال أنفسنا من جيفة أوروبا العجوز.

تتمثّل الطريقة الوحيدة لنكون أوروبيين حقيقيين اليوم في العمل على نطاق عالميّ لا يركّز على أوروبا في مساعدة الهند مثلاً والآخرين في توفير اللقاحات والتعبئة على الصعيد الدوليّ ضدّ الاحتباس الحراريّ وتنظيم الرعاية الصحية العالمية.

يرى منتقدو المنصّة في مثل هذا الموقف دلالةً واضحة على العدميّة، واختزال تداول الأسهم بالمقامرة، وكما عبّر عن ذلك أحد المشاركين في المنصّة: ”تحوّلتُ من مستثمر عقلانيّ إلى مقامر مريض يائس غير عقلانيّ“. خير ما يمثّل هذه العدميّة هو مصطلح ”yolo“ (you only live once) [تعيش مرّة واحدة لا غير] المستخدم في مجتمع المنصّة لوصف الأشخاص الذين يخاطرون بكامل محفظتهم في تداول أسهم أو خيارات بيع بعينها. لكنّ ما يدفع المشاركين في المنصة ليس مجرّد عدميّة، فعدميّتهم تدلّ على لا مبالاة اتجاه النتيجة النهائية. وكما قال جيرمي بلاكبورن Jeremy Blackburn وهو أستاذٌ مساعد في علوم الحاسوب: ”ليست الغايات هي المهمّة. إنّها الوسيلة. إنّها حقيقة أنّك تضع رهانك. إنّه المكان الذي فيه القيمة في هذا كلّه. بالتأكيد، يمكنك الحصول على المال أو أن تفلس لكنّك لعبت اللعبة وقمت بذلك بطريقة مجنونة“[142]. أليس هذا ضرباً من ضروب إبطال الاستلاب كشفُ اللعبة على حقيقتها (بكلّ ما فيها من شطط)؟ يميّز جاك لاكان في نظريته عن التحليل النفسيّ بين اللذة المباشرة (الاستمتاع بالموضوع الذي نرغب فيه) وفائض المتعة. مثاله الأساسيّ هو طفل يلعق/ هي طفلةٌ تلعق ثدي الأم: يقوم الطفل/ تقوم الطفلة بذلك بداية لإشباع جوعه/ جوعها، لكنّه يبدأ/ لكنّها تبدأ بالاستمتاع بفعل اللعق بحدّ ذاته ويواصل/ تواصل ذلك حتّى بغياب الجوع. ينطبق الأمر عينه على التسوق (يستمتع كثيرون بنشاط التسوّق أكثر من استمتاعهم بما يبتاعونه فعلياً) أو النشاط الجنسيّ عموماً. يُخرِج المشاركون في تلك المنصّة إلى العلن فائض المتعة المتحقّق من المقامرة في سوق الأوراق المالية.

142 Jon Sarlin, “Inside the Reddit Army That's Rocking Wall Street,” CNN, January 30, 2021, https://edition.cnn.com/2021/01/29/investing/wallstreetbets-reddit-culture/index.html كيف يعمل هذا في فضائنا السياسيّ؟ تُمثّل تلك المنصّة تمرّداً شعبوياً غامضاً على الصعيد السياسيّ. عندما تنازلت منصّة Robinhood أمام الضغوط ومنعت صغار المستثمرين من شراء الأسهم، عارضت كورتيز هذا التحرّك بحجّة صحيحة: ”هذا الأمر غير مقبول، من الضروريّ أن نعرف الآن المزيد عن قرار @RobinhoodApp بمنع صغار المستثمرين من شراء الأسهم في حين تكون صناديق التحوّط قادرة على تداول الأسهم بحرية على النحو الذي تراه مناسباً“[143] (أعادت المنصّة التداول لاحقاً). ساندَ تيد كروز Ted Cruz كورتيز من وجهة النظر الشعبوية اليمينية المتطرفة المعارضة للمصارف الكبيرة و Wall Street(كانت كورتيز محقّة في رفض التعاون).

143 تغريدة نشرتها ألكسندريا أوكاسيو كورتيز في: https://twitter.com/AOC/status/1354830697459032066

في وسعنا تخيّل الهول الذي كان في وسع WallStreetBets أن توحي به في Wall Street: تدخّلٌ مكثّف في سوق الأوراق المالية يقوم به ”هواة“ لا يتبعون قواعد اللعبة وقوانينها (بل إنّهم لا يريدون معرفتها) ويبدون في النتيجة من وجهة نظر المستثمرين المحترفين كمجانين ”غير عقلانيين“ يفسدون اللعبة. تتمثّل السمة الرئيسية لأعضاء مجتمع تلك المنصة تحديداً في الدور الإيجابيّ

لعدم المعرفة هذا، فهم يولّدون آثاراً مدمّرة في واقع تبادلات السوق نتيجة تجاهل المعرفة "العقلانية" لقواعد وقوانين الاستثمار التي يزعم متداولو الأسهم "المحترفون" أنّهم يطبّقونها.

تعني الجاذبية الشعبية للمنصّة أنّ ملايين الأشخاص العاديين، وليس سماسرة المال المبرّزين فحسب، يستطيعون المشاركة فيها. لقد انفتحت جبهة جديدة في الحرب الطبقية الأميركية. وكما غرّد روبرت رايش: "دعوني أوضّح الأمر: هل استقطاب شركة GameStop أعضاء منتدى Reddit هو تلاعب بالسوق، في حين أنّ بيع أصحاب مليارات صندوق التحوّط للأسهم على المكشوف هو مجرّد إستراتيجية استثمار؟"[144]. من كان في وسعه توقّع هذا: تحوّل حرب طبقية إلى نزاع بين مستثمري الأسهم والمتداولين أنفسهم؟

144 Christine Romans, "Hedge Funds Bitching about Reddit Can Cry Me a River," CNN, January 29, 2021, https://edition.cnn.com/2021/01/29/investing/populist-uprising-reddit-wall-street/index.html إنّه مرّة أخرى قتلٌ للأشخاص الطبيعيين، بالإحالة إلى عنوان كتاب أنجيلا ناغل. وكما وضّح أحد التقارير: "بالنسبة إلى منصّة WallStreetBets، ثقافة الأشخاص الطبيعيين التي تقف في مواجهتها هي ثقافة الاستثمار 'الآمن' السائدة: التركيز على المكاسب البعيدة المدى والوصول إلى الحدّ الأقصى من خطة حسابك التقاعدي (K) 401 وشراء صناديق المؤشرات" (index funds)[145]. لكن هذه المرّة لا بدّ من "قتل" الأشخاص الطبيعيين حقاً. لماذا؟ المفارقة هي أنّ Wall Street نموذج التنبؤات الفاسدة والتداول الداخليّ الذي يقاوم دائماً بحكم التعريف تدخّل الدولة وضوابطها يعارض حالياً المنافسة غير العادلة ويدعو إلى فرض ضوابط الدولة... أمّا عن الاتّهام الصادر عن Wall Street بأنّ Robinhood هي منصة مقامرة، فيكفيه تذكّر أنّ إليزابيث وارن اتّهمت صناديق التحوّط مراراً وتكراراً باستخدام سوق الأوراق المالية "كأنّها نادي قمار خاص بها". موجز القول: تقوم WallStreetBets بأسلوب صريح وقانونيّ بما يقوم به Wall Street سراً وبأسلوب غير قانونيّ.

145 Sarlin.

من المحال تحقّق يوتوبيا الرأسمالية الشعبوية لتلك المنصّة، المثل الأعلى لملايين الأشخاص العاديين من العمال والطلبة نهاراً الذين يتلهون بالاستثمارات مساءً، ولا يمكن إلّا أن تنتهي بفوضى مدمّرة للذات. ولكن أليس من جوهر طبيعة الرأسمالية أن تنتابها الأزمات دورياً – الأزمة الكبرى في 1928 والانهيار الماليّ في 2008 (التي تسبّبت فيها صناديق التحوّط "العقلانية")، مكتفين بذكر الحالتين الأكثر شهرة – وأن تخرج منها أكثر قوّة؟ لكن في كلتا الحالتين وكذلك في أزمة المنصّة، كان محالاً (ولا يزال) أن يُستعاد التوازن بآليات السوق الراسخة؛ الثمن باهظ وهنالك حاجة إلى تدخّل خارجيّ (حكوميّ) هائل. هل في مستطاع الدولة استعادة التحكم في اللعبة واستعادة الوضع الطبيعيّ السابق الذي دمّرته المنصّة؟ الصين بتحكّم حكومتها الصارم في سوق الأوراق المالية هي النموذج هنا، لكنّ تطبيق ذلك في الغرب لا يقتضي تغييراً جذرياً في السياسة الاقتصادية فحسب، فمن غير الممكن تحقيق ذلك إلّا نتيجة تحوّل سياسيّ اجتماعيّ عالميّ.

أظهر الفائض الذي أخرجته المنصّة إلى العلن اللاعقلانية الكامنة في سوق الأوراق المالية نفسها؛ إنّها لحظة انكشاف حقيقتها. ليست هذه المنصّة تمرّداً على Wall Street، لكنّها شيء يُحتمل أن يكون أكثر تخريباً بكثير. إنّها تخرّب النظام نتيجة فرط تماهيها به أو بالأحرى نتيجة تعميمه وفي النتيجة إبراز عبثيته. إنّه يشبه مقاربة مرشّح دخيل خاض الانتخابات الرئاسية الأخيرة في كرواتيا. كانت النقطة الأساسية في برنامجه: "الفساد للجميع! أعدكم بألّا يكون في وسع النخبة وحدها الاستفادة من الفساد. سيكون في وسعكم جميعاً أن تستفيدوا منه!". عندما ظهرت لافتات تحمل هذا الشعار في أرجاء زغرب جميعها باتت حديث المدينة، وتفاعل الناس بحماسة معها رغم معرفتهم أنّها دعابة... بلى، كانت أنشطة المشاركين في المنصّة في كانون الثاني/ يناير عدميّة، لكنّ هذه العدميّة ملازمة لسوق الأوراق المالية عينها وهي قيد العمل بالفعل في Wall Street. علينا للتغلّب على هذه العدميّة أن نخرج بطريقة ما من لعبة سوق الأوراق المالية. لحظة الاشتراكية تتوارى في الخلفية وتنتظر من يغتنمها كصدوع تظهر في مركز الرأسمالية العالمية عينه.

هل سيحدث هذا؟ من المؤكد تقريباً أنّه لن يحدث، لكنّ ما يوجب اهتمامنا هو أنّ أزمة المنصّة تشكّل تهديداً آخر غير متوقّع لنظام يتعرّض بالفعل لهجوم من جوانب متعدّدة (الجائحة والاحتباس الحراريّ والاحتجاجات الاجتماعية...)، وهذا التهديد يأتي من صميم قلب النظام وليس من خارجه. يجري إعداد مزيجٍ متفجّر، وكلّما تأجّل الانفجار، سيكون أشدّ تدميراً.

من الظواهر المترابطة، ولهذا نحن الآن في غمار اللحظة الأخطر من مجمل الجائحة. سيكون الاسترخاء الآن أشبه بالاستغراق في النوم خلف عجلة القيادة لسيارة تسير بسرعة على طريق متعرج. علينا اتّخاذ قرارات كثيرة لا تستند إلى العلم جميعها. لحظتنا الحالية هي لحظة الخيارات السياسية الجذرية.

147 Melissa Davey, "WHO Warns Covid-19 Pandemic Is 'Not Necessarily the Big One,'" *The Guardian*, December 29, 2020, https://www.theguardian.com/world/2020/dec/29/who-warns-covid-19-pandemic-is-not-necessarily-the-big-one صحيح أنّ العلم قد ينقذنا – غريتا ثانبيرغ محقّة في وجوب أن نثق بالعلم – ولكن علينا أيضاً بروح علمية حقيقية التسليم بأمرين لاحظهما يورغان هابرماس: مع الجائحة لم نتعلّم أموراً جديدة فحسب، بل توصّلنا كذلك إلى معرفة أنّنا لا نعرف أشياء كثيرة، فضلاً عن أنّنا أكرهنا على التصرّف في مثل هذا الوضع المستغلق على الفهم ونحن لا نعرف ما الآثار التي ستترتّب على تصرّفنا.[148] وعلى النحو الذي ناقشناه، لا يتعلّق هذا الجهل بالجائحة بحدّ ذاتها فحسب، وإنّما بما هو أكبر منها: عواقبها النفسية والاجتماعية والاقتصادية. ولا يقتصر الأمر على أنّنا لا نعرف ما يحدث، بل يتعلّق بمعرفتنا أنّنا لا نعرف، وهذا الجهل هو بحدّ ذاته واقع اجتماعيّ مُدرج في طرق عمل مؤسّساتنا.

148 انظر: Markus Schwering, "Jürgen Habermas über Corona: ‚'So viel Wissen über unser Nichtwissen gab es noch nie'" *Frankfurter Rundschau*, April 10, 2020, https://www.fr.de/kultur/gesellschaft/juergen-habermas-coronavirus-krise-covid19-interview-13642491.html علينا هنا أن نخطو خطوة أخرى. لا يقتصر الأمر اليوم على أنّنا نعرف أكثر فأكثر ما لا نعرفه؛ يبدو أحياناً أنّ الواقع نفسه يسلك سلوك من نَسي قوانينه الخاصة. نعرف الدعابة المتعلّقة "بالمعرفة في الواقع": يعرف الحَجَر القانون الذي ينبغي له أن يمتثل له حين يتهاوى.... لكنّ الدرس الأساسيّ في الفيزياء الكَمّية هو أنّ الطبيعة نفسها لا تعرف كلّ قوانينها، ولهذا تفاعل ألبرت أينشتاين Albert Einstein مع الإرباك الذي تثيره الفيزياء الكَمّية، ومبدؤها الأساسيّ عدم التعيين في الطبيعة. وهذا يعني ببساطة – من وجهة نظر أينشتاين – أنّ الفيزياء الكَمّية نظرية غير مكتملة تُغفل متغيّرات مجهولة. ثمّة مفارقة كبرى في حقيقة أنّ حوار أينشتاين ونيلز بور Niels Bohr الأكثر شهرة تتعلّق بالله رغم أنّهما ملحدان: لاحظ أينشتاين أنّ "الله لا يلعب بالنرد"، وارتدّ بور: "كفّوا عن إخبار الله بما يجب أن يفعل". لم يكن اختلافهما بشأن الله وإنّما بشأن طبيعة كوننا. لم يكن في وسع أينشتاين قبول أنّ الطبيعة نفسها "غير كاملة" بمعنىً ما. يبدو أنّ الجائحة توضح صوابَ رأي بور.

يُفسح عدم التعيين هذا الذي يمضي نزولاً حتّى يبلغ المستويات ما دون الذرية المجالَ أمام تدخّلاتنا، لكن إذا اضطلعنا به اضطلاعاً كاملاً فحسب، أي إذا رفضنا الحتمية بنسختيها الرئيستين: المذهب الطبيعيّ والعناية الإلهية. ردَّ لاهوتيّ سلوفينيّ (يدعو إلى إبقاء الكنائس مفتوحةً رغم ضوابط الحجر الصحيّ) على منتقديه القائلين إنّ دعوته ستتسبّب في فقدان أرواح كثيرة رداً مباشراً: "مهمة الكنيسة هي الخلاص وليست الصحة".[149] مجمل القول: موت الآلاف ومعاناتهم لا يهمّ مقارنةً بخلاصهم اعتماداً على الرب... هذا ما كانت تقوم به الأم تيريزا في كالكوتا. كانت مهمتها الاعتناء "بالجياع والعراة والمشرّدين والمعاقين والمكفوفين والمجذومين والذين يشعرون بأنّهم منبوذون ومكروهون ولا يحظون برعاية المجتمع جميعهم، والذين باتوا عبئاً على المجتمع ويتجنّبهم الآخرون".[150] ولكن كما أوضح المنتقدون، اعتنت بخلاصهم واعتناقهم الكاثوليكية على فراش الموت أكثر من اعتنائها

بصحتهم.[151] إذاً نستطيع أن نتخيل بسهولة ما الذي كانت ستفعله الآن والجائحة تفتك بالعالم: لا للقاحات ولا حتّى لأجهزة التنفس ولا شيء سوى تقديم العزاء الروحيّ في الجو الكئيب الذي يحيط بنا في الساعات الأخيرة من حياتنا... وفي وسعنا أن نتخيل ما الذي سيحدث في المستقبل القريب إذا واصلت الجائحة انتشارها أيضاً (بطفرات جديدة للفيروس مثلاً) وجعلت اللقاحات عديمة الجدوى: سيموت الناس على نطاق أشمل من نطاق الإنفلونزا الإسبانية، وبسبب عدم وجود أيّ رؤية لكيفية احتواء الجائحة سوف تتخلّى سلطاتنا عن مهماتها لمجرّد تقديم الرعاية إلى المحتضرين بما فيها الحبوب التي تُمكّن من الموت من دون ألم، في حين ستعرض الكنيسة اهتداءات جماعية لتقليل اكتئابنا مع وعد بالخلاص للمؤمنين.

149 Verniki večinsko ne podpirajo nadškofovega poziva vladi, naj odpravi prepoved izvajanja verskih obredov,” *Domovina*, December 16, 2020, https://www.domovina.je/verniki-vecinsko-ne-/podpirajo-nadskofovega-poziva-vladi-naj-odpravi-prepoved-izvajanja-verskih-obredov

150 Mother Theresa, cited in “Missionaries of Charity,” Wikipedia,
151 https://en.wikipedia.org/wiki/Missionaries_of_Charity انظر: Christopher Hitchens, *The Missionary Position: Mother Theresa in Theory and Practice* (London: Verso Books, 2013).

إذاً خير ما يلخّص خيارنا النهائيّ بداية نصّ كتبه وودي آلن Woody Allen يعود تاريخه إلى 1979: ”يواجه الجنس البشريّ أكثر من أيّ وقت مضى من التاريخ مفترق طرق. يفضي الطريق الأول إلى القنوط واليأس المطلق، والآخر إلى الفناء التامّ؛ دعونا نصلِّ كي نتحلّى بالحكمة لاختيار ما هو صائب“.[152] يتمثّل الخيار الصائب في الاضطلاع بالقنوط اعترافاً منّا باليأس المطلق من مأزقنا. ما لم نعبر نقطة الصفر هذه، فلن يكون في وسعنا بناء مجتمع جديد مقبل. قد يفضي بنا الخيار الخطأ إلى مجتمع منقسم جديد يعيش فيه أصحاب الامتيازات في جُزر معزولة في حين تعيش غالبية الناس في ظروف وحشية. تُعَدّ المساواة اليوم أكثر من أيّ وقت مضى ضرورةً ملحّة وليس مجرّد مثل أعلى مُبهم. اللقاحات للجميع والرعاية الصحية الشاملة والمكافحة العالمية لأزمة المناخ أضحت أموراً ضرورية. ثمّة مؤشرات على أنّه حتّى الشركات مقبلة على قبول ذلك. قال أوجور شاهين Uğur Şahin المدير التنفيذيّ لشركة BioNTech – هو تركيّ يعيش في ألمانيا أدّى دوراً رئيسياً في اختراع لقاح رائد – في مقابلة أُجريت معه أواخر 2020: ”لا يبدو الأمر جيداً في هذه اللحظة؛ تظهر فجوة بسبب نقص في اللقاحات المعتمدة الأخرى وعلينا أن نجسر هذه الفجوة بلقاحنا“.[153] إنّها لحظة نادرة ومدهشة في الرأسمالية المتأخرة حين يطلب مدير تنفيذيّ في إحدى الشركات من منافسيه أن يصبحوا أقوى لأنّه يعلم أنّهم لن يتمكّنوا من الانتصار في مكافحة الأزمة الصحية العالمية إلّا معاً.

152 Woody Allen, “My Speech to the Graduates,” the *New York Times*, August 10, 1979, https://www.nytimes.com/1979/08/10/archives/my-speech-to-the-graduates.html

Gaps in Pfizer/BioNTech Vaccine Supply Likely," *The Guardian*,“ 153
January 1, 2021,
https://www.theguardian.com/world/live/2021/jan/01/coronavirus-live-news-new-covid-variant-b117-in-united-states-since-october إذاً لعلّ
الطريقة المناسبة التي نختتم بها هي في تكرار التحذير الشهير الذي يضاف أحياناً لفكرة الضوء في نهاية النفق: دعونا نتأكد من أنّ هذا الضوء ليس ضوءَ قطار يندفع نحونا.

البيئة لشبابه المثالية نسبياً. لم يعد قادراً على تحمّل مسؤوليته كحامٍ وحيد للأرض من الهجمات النووية التي يشنّها القمر، وهكذا خُلقت المدينة الزائفة في ذهن غام للتكيّف مع تراجعه إلى طفولته وعقلنته إذ يستطيع مواصلة تنبئه بالضربات النووية تحت الستار لتقديم مدخلات إلى المسابقة لصحيفة غير ضارة، ودون هواجس أخلاقية ترتبط بكونه في "الجانب الخطأ" من الحرب الأهلية. حين يتذكّر غام أخيراً تاريخه الشخصيّ الحقيقيّ يقرّر بعد هذا كلّه الهجرة إلى القمر بسبب شعوره بأنّه ينبغي ألّا تُنكر أيّ حكومة على الناس حقّ الاستكشاف والهجرة.

يحاكي مأزق غام تماماً دور العلماء اليوم الذين يعملون لمصلحة المؤسّستين الفكرية والعسكرية، فمعظمهم يعيشون في فضاءات الحرم الجامعيّ المثالية والمصطنعة أو ضواحي الأغنياء محميين من فوضى الحياة المعاصرة؛ يبدو عملهم من وجهة نظرهم كأنّه جهد مرح يرمي إلى الحلّ لألغاز رياضية، في حين تستخدم المؤسّسة أعمالهم لفرض السيطرة الاجتماعية وتعزيز القوّة العسكرية.

ينجح غام في الرواية في الخروج من عالمه المنعزل وبلورة موقف نقديّ يمكّنه من الانخراط في السياسة. ولكن هنالك مواقف نقدية ومواقف حاسمة، والموقف النقديّ "الجذريّ" (الموقف الأخلاقيّ الثاني الذي أقترح أن يؤخذ بالحسبان هنا) يحتوي فخاخه الخاصة. تقدّم الفرقة التشيلية Los Prisonieros [السجناء] في أغنيتها "Nunca quedas mal con nadie" (لن تترك انطباعاً سيئاً أبداً) صورة مثالية عن اليسار "الراديكاليّ" الزائف؛ إليكم بعض كلمات الأغنية: أتظنون أنّكم تحتجّون؟/ أتظنون أنكم متمردون؟/ تتذمّرون من التلوّث/ تتحدّثون عن الأتمتة/ تدافعون عن الإنسانية/ تبكون لأنّ العالم بهذا السوء/ تنتقدون المجتمع/ تقولون إنّ كلّ شيء يجب أن يتغيّر/ على خشبة المسرح، تسبغون على صوتكم طابع التراث الشعبيّ/ "تسقط المدينة وتلوّثها"/ بألحانكم اللطيفة وتعاطفكم الرومانسيّ/ لن تتركوا انطباعاً سيئاً لدى أيّ شخص/ تقولون لي إنّكم تحتجّون/ ولكن.../ موقفكم لا يزعج أحداً/ هل هدفكم مهاجمة شيء ما، أم مجرد الحصول على التصفيق؟/ تتذمّرون من مطلقي القنابل/ تقولون إنّهم سيكونون نهاية العالم/ لكنّكم لا تسمّون أحداً/ تخافون من أن تتركوا انطباعاً سيئاً/ تظنون أنّكم ثوريون ومثيرون للجدل/ لكنّكم لا تتركون انطباعاً سيئاً/ لستم سوى نسخة سيئة من خواجات هيبيين/ موقفكم، أنصتوا أيّها الملتحون الأغبياء/ باع نفسه فينال تصفيق أصحاب الضمير التافه/ تناقضون احتجاجكم الشهير برمّته/ بألحانكم الجميلة والمعقّدة/ تتظاهرون بالكفاح.../ ولستم سوى قطعة لطيفة من القذارة!

رغم أنّ هذه الأغنية تستدعي شخصيةً تشكّل جزءاً من الوضع في تشيلي، لكنّ راهنيتها عالمية. غالباً ما أتحدّث عن كيف أنّنا نجد في أسواق اليوم سلسلةً كاملة من منتجات انتُزعت منها خصائصها الضارة: قهوة منزوعة

الكافيين أو قشدة منزوعة الدسم أو جعّة منزوعة الكحول... والقائمة طويلة: جنس افتراضيّ ومعاشرة منزوعة المعاشرة وفن إدارة الخبرات كالسياسة المنزوعة السياسة والتعدّدية الثقافية الليبرالية المتسامحة حتّى اليوم بوصفها تجربة للآخر المحروم من آخريته المزعجة. أضافت فرقة Los Prisonieros شخصية أساسية أخرى من فضائنا الثقافيّ إلى هذه السلسلة: المحتجّ المنزوع الكافيين. إنّه محتجّ يقول (أو ينشد) الأشياء الصحيحة كلّها لكنّه ينتزع منها بطريقة ما ميزتها المهمّة. يرتاع من الاحتباس الحراريّ ويكافح التحيّز الجنسانيّ والعنصرية ويطالب بتغيير اجتماعيّ جذريّ، والجميع مدعوون للانضمام إلي شعور كبير بالتضامن العالميّ، لكنّ ذلك كلّه يعني فحسب أنّه ليس مطلوباً منه تغيير حياته (ربما مجرّد التبرع هنا وهناك). يواصل مسيرته المهنية، منافِس دون هوادة، لكنّه في الجانب الصائب.

كتب جورج أورويل George Orwell في مقدمة روايته *Animal Farm* [**مزرعة الحيوانات**] أنّه إن كانت الحرية تعني أيّ شيء، فهي تعني "الحقّ في إخبار الناس بما لا يرغبون في سماعه". وهذا ما لا يفعله المحتجّ المنزوع الكافيين إطلاقاً، فهو يُسمع جمهوره ما يرغب هذا الجمهور بسماعه. وما الذي يرغب في سماعه؟ لا يزال الموقف السائد بين "اليساريين الراديكاليين" الأكاديميين اليوم هو عينه الموقف الذي عرضه أورويل في 1937 بصدد الفوارق الطبقية عندما كتب: "جميعنا يعارضون الفوارق الطبقية، لكنّ قلّة من الناس تريد حقاً إلغاءها. هنا تعثر على حقيقة مهمّة مفادها أنّ كلّ رأي ثوريّ يستمدّ جزءاً من قوته من قناعة خفية بأنّه ما من شيء يمكن تغييره"[155]. يشير أورويل إلى أنّ الراديكاليين يذكرون الحاجة إلى التغيير الثوريّ كنوع من شعار خرافيّ يعمل حقاً على تحقيق العكس، أي يمنع حدوث التغيير فعلياً. يتجلّى ذلك حالياً في يساريّ أكاديميّ ينتقد الإمبريالية الثقافية الرأسمالية، لكنّه في الواقع يرتعب من فكرة أن مجال دراسته قد يتضعضع. لهذا نحن بحاجة إلى فِرق كفرقة Los Prisonieros لمواجهة حقيقتنا بكلّ ما تتطلّبه من وحشية لا ترحم. علينا أن نستجمع الشجاعة لتسمية الشرور التي تُحيق بنا بأسمائها.

155 George Orwell, *The Road to Wigan Pier* (1937), available online at http://gutenberg.net.au/ebooks02/0200391.txt دعونا نأخذ مثالاً حديثاً من جزء آخر من العالم لشخص "يعارض كلّ احتجاجاتهم الشهيرة بألحانٍ معقّدة وجميلة". في كانون الثاني/ يناير 2020، دعا رئيس بلدية القدس موشيه ليون Leon Moshe مشاركين من منتدى المحرقة اليهودية العالميّ إلى حفل كوكتيل فريد من نوعه تضمّن منسّق أغانٍ في كهف تحت البلدة القديمة.[156] لا يمكن عدّ مثل هذا الحدث خاتمةً مناسبةً لإحياء ذكرى المحرقة إلّا في عالمنا المقلوب رأساً على عقب، حين تصبح الفواحش على نحو متزايد جزءاً من الحياة العامّة اليومية. فلا عجب في أنّ أياماً فصلت هذا الحدث عن تكشّف فاحشة أخرى، "خطة سلام" الشرق الأوسط الخاصّة بترامب: اقتراح للسلام بين طرفين لم يُستشر بشأنها إلّا أحدهما في حين جرى تجاهل الطرف الآخر.

156 Nir Hasson, "Jerusalem Mayor Invites Holocaust Forum Attendees to Cocktail Party," *Haaretz*, January 20, 2020, https://www.haaretz.com/israel-news/.premium-j-lem-mayor-invites-holocaust-

forum-attendees-to-cocktail-party-complete-with-dj-1.8414774

اقترح كارلو غينزبرغ Carlo Ginzburg تصوراً مفاده أنّ الخزي من بلدك وليس حبه قد يكون علامةً حقيقية على انتمائك إليه.[157] حدث مثال مهمّ على مثل هذا الخزي في 2014 عندما نشر مئات من الناجين من المحرقة والمتحدّرين من الناجين إعلاناً مأجوراً في صحيفة *The New York Times* يُدينون فيه ما أشاروا إليه بعدّه "مذبحة الفلسطينيين في غزة واستمرار احتلال فلسطين التاريخية واستعمارها".[158] جاء في البيان: "نشعر بالانزعاج من تجريد الفلسطينيين المتطرّف والعنصريّ من إنسانيتهم في المجتمع الإسرائيلي". نأمل اليوم أن يستجمع كثيرون من الإسرائيليين شجاعتهم للشعور بالخزي من السياسات الصادرة عن قادة من أمثال نتنياهو Netanyahu وترامب باسمهم، وليس الخزي بطبيعة الحال من كونهم يهوداً وإنّما – خلافاً لذلك – الخزي ممّا تفعله سياسات إسرائيل في الضفة بما هو أثمن إرث اليهودية نفسها. وهذا ما تخبرنا به أغنية "Nunca quedas mal con nadie" لفرقة Los Prisonieros وأغانٍ أخرى: أحياناً، يكون شعورك بالخزي من بلدك هو الطريقة الوحيدة للانتماء الكامل إليه وللقتال في سبيله.

157 انظر: Carlo Ginzburg, "The Bond of Shame," in *New Left Review* 120 (November/ December 2019), p. 35–44.

158 Matthew Kassel, "NY Times Runs Ad from Holocaust Survivors Condemning Israel, Attacking Elie Wiesel," *The Observer*, August 25, 2014, https://observer.com/2014/08/ny-times-runs-ad-from-holocaust-survivors-condemning-israel-attacking-elie-wiesel/

إذاً ما الذي سيكونه الموقف الثالث إزاء جنون عالمنا المقلوب رأساً على عقب، موقفٌ سيسمح لنا بتجنّب فخاخ الموقف النقديّ من دون الوقوع مرّة أخرى في تأكيد الواقع كما هو؟ أو بمصطلحات أكثر أخلاقية: كيف سنواصل العيش بعد أن نتخلّص من أوهام الموقف النقديّ؟ جمع منظّر الكوارث (البيئية والاقتصادية وغيرها) جان بيير دوبوي Jean–Pierre Dupuy في كتابه الأخير La vie ou la catastrophe [الكارثة أو الحياة][159] تأمّلاته بشأن جائحة كورونا. يصف في بداية الكتاب التحدّي الذي مثّلته الجائحة لنظرية تأثير الكوارث الخاصة به. ينطلق في هذه النظرية من هنري برغسون Henri Bergson الذي يصف في كتابه *The Two Sources of Morality and Religion* [**منبعا الأخلاق والدين**] الأحاسيس الغريبة التي انتابته في 4 آب/ أغسطس 1914 حين أُعلنت الحرب بين فرنسا وألمانيا. المهمّ هنا هو كيفية القطع بين ما قبل ذلك اليوم وما بعده. بدت الحرب لبرغسون قبل اندلاعها "ممكنة ومستحيلة في الآن عينه، فكرة معقّدة ومتناقضة استمرت حتّى النهاية".[160] بعد اندلاع الحرب، صارت فجأة واقعيةً وممكنةً، والمفارقة تكمن في هذا الظهور بأثر رجعيّ

للاحتمالية: 159 Jean-Pierre Dupuy, *La catastrophe ou la vie* (Paris: Editions du Seuil, 2021).

160 Henri Bergson, *Œuvres* (Paris: PUF, 1991), pp. 1110–1111.

> لم أزعم يوماً أنّ في وسع المرء إدخال الواقع في الماضي وفي النتيجة العودة بالزمن إلى الوراء. لكنّ المرء يستطيع إدخال الممكن هناك من دون أيّ شك، أو أنّ الممكن يُدخِل نفسه بالأحرى هناك في كلّ لحظة. بقدر ما يخلق نفسَه واقع جديد لا يمكن التنبؤ به، فإنّ صورته تعكس نفسها خلف نفسها في الماضي غير المحدّد: يجد هذا الواقع الجديد نفسه ممكناً في كلّ وقت لكنّه لا يبدأ في أن يكون ممكناً على الدوام إلّا في اللحظة المحدّدة لظهوره الفعليّ، وهذا سبب قولي إنّ احتماليته التي لا تسبق واقعه ستسبقه ما إن يظهر هذا الواقع.[161]

161 Bergson, *Œuvres*, p. 1340.

كان الناس قبل اندلاع الحرب على دراية تامّة بأنّ هنالك تهديداً بنشوب نزاعٍ عسكريّ، لكنّهم لم يعتقدوا حقاً أنّها يمكن أن تنشب؛ لقد عدّوا نشوب الحرب مستحيلاً. تُعدّ المعرفة في نظريتنا المعرفية اليومية أعلى (أقوى) من الاعتقاد: تعتقد بشيء ما لا تستطيع معرفته كاملاً، وينبغي أن تنطوي المعرفة الكاملة تلقائياً على الاعتقاد. لكن في حالة برغسون، يمكنك أن تحوز المعرفة من دون أن تنطوي آلياً على الاعتقاد. حالما اندلعت الحرب، عاد موقف الناس إلى طبيعته بسرعة وتلقائية: لقد قُبلت الحرب بوصفها أمراً ممكناً. تتمثّل المفارقة في أنّ واقعية الحدوث تسبق الاحتمالية وتؤسّس لها: ما إن يُعَدّ شيء ما مستحيلاً ويتحقق في الواقع، حتّى يصبح ممكناً.

غير أنّ الأمور مع الجائحة مضت (تقريباً) بالاتجاه المعاكس. فقبل تفشّي الجائحة، نوقشت على نطاق واسع احتماليته وحتّى حتميته؛ كان الجميع يُعوّلون على هذا التفشّي، بل في وسع المرء أن يظنّ أنّ هذه المعرفة لم تكن تنطوي على عدم الاعتقاد. لذلك في حين عُدّ وقوع الكارثة الفيروسية ممكناً ما دامت متوقّعة فحسب، لم نتمكّن في الواقع من حمل أنفسنا على الاعتقاد بوقوعها حين أصابتنا حقاً. لم "تُطبَّع" وإنّما عُدّت (لا يزال كثيرون يُعدّونها) مستحيلة، وأُنكرت نتيجة مجموعة من الطرائق المختلفة (الإنكار الصريح ونظرية المؤامرة وما إلى ذلك). على المرء هنا أن يضع في عدّه الجانب الزمنيّ: حين نتحدّث عن كوارث كبرى كالجوائح والاحتباس الحراريّ، حتّى في حالة الذعر، فنحن قاعدةً عامّةً لا نحدّد وقوعها في المستقبل القريب (عقد أو نحو ذلك)، كما يتجلّى ذلك في الادّعاء الذي كثيراً ما نسمعه: "إن لم نتحرّك الآن، فعاجلاً سيكون الأوان قد فات". أو نحدّد وقوع الكارثة في منطقة بعيدة (تختفي الشعاب المرجانية شمالي أستراليا، تذوب الأنهار الجليدية...). لكنّ

الجائحة وقعت توّاً وأصابتنا بكلّ قوّتها وأوشكت على التسبّب في توقّف حياتنا الاجتماعية.

إذاً، أيّ موقف أخلاقيّ علينا اعتماده في مثل هذا المأزق؟ العائق الأساسيّ الذي يعترض التزامنا الأخلاقيّ التامّ وما يمنعنا من مواجهة المشكلة بصورة فعّالة هو ببساطة الإرهاق. إنّ المفارقة في ما يُدعى إرهاق كورونا تتمثّل في أنّ ما يتعبنا في هذه الأيام – رغم الاعتقاد عموماً بأنّ الامتثال لعادات مستقرّة ومتكرّرة مسؤول عن جعل الحياة متعبة – هو تحديداً غياب مثل هذه العادات المستقرّة. تعِبنا من العيش في حالة دائمة من الاستثناء عاجزين عن الاسترخاء في حياتنا اليومية بانتظار تعليمات جديدة من الدولة تخبرنا كيف نتفاعل. نشر كثيرون، من بينهم راينر باريس Rainer Paris، مقالات تستهجن تدمير الجائحة المستمر حياتنا اليومية وتستعرض التهديدات التي تفرضها على النشاطات الرتيبة التي تحافظ على تماسك مجتمع ما.[162] كانت إحدى أفضل دعابات سام غولدوين Sam Goldwyn القائمة على المفارقات حين أخبر بأنّ النقاد يتذمّرون من وجود كمٍّ مفرطٍ من القوالب الجامدة القديمة في أفلامه، فكتب مذكّرة إلى قسم السيناريو في شركته مفادها: ”نحن بحاجة إلى مزيدٍ من القوالب الجامدة الجديدة“. وهذا صحيح بصورة عامة؛ مهمّتنا الأصعب اليوم تتمثّل في خلق ”قوالب جامدة جديدة“ لحياتنا اليومية المعتادة.

162 انظر: Rainer Paris, “Die Zerstörung des Alltags,” WELT, September 23, 2020, https://www.welt.de/kultur/plus216264982/Corona-Die-Zerstoerung-des-Alltags.html هنالك بالطبع فوارق ثقافية كبيرة في الكيفية التي يعمل فيها الإحساس السائد بالإرهاق. إنّ بيونغ تشول هان Byung–Chul Han محقّ تماماً حينما يشير إلى أنّ الإرهاق الناجم عن كورونا أشدّ في مجتمعات الغرب المتقدّمة لأنّ المواطنين هناك يعيشون أكثر من أيّ مكان آخر تحت ضغط الإكراه على الإنجاز: الإكراه لتحقيق ما نُخضع أنفسنا له... يرافقنا في أوقات فراغنا ويعذّبنا حتّى في نومنا وغالباً ما يفضي إلى ليلٍ بلا نوم. لا يمكن التعافي من الإكراه على الإنجاز. هذا الضغط الداخليّ هو على وجه الخصوص ما يجعلنا متعبين... صعود الأنانية والتذرّر والنرجسية في المجتمع ظاهرةٌ عالمية. تُحوّلنا وسائط التواصل الاجتماعيّ إلى منتجين، أصحاب مشاريعٍ ذواتُهم أعمالٌ تجارية. تُعولِم هذه الظاهرة ثقافة الأنا التي تتسبّب في تآكل المجتمع وكلّ ما هو اجتماعيّ. ننتج أنفسنا ونعرضها دائماً. إنتاج الذات هذا – ”العرض“ المستمر للأنا – يجعلنا متعبين ومحبطين... التعب الأساسيّ في نهاية المطاف نوع من تعب الأنا، يكثّفه العمل من المنزل نتيجة زجّنا بعمق في ذواتنا. الآخرون الذين في وسعهم صرف انتباهنا عن أنانا مفقودون... غياب الشعائر سبب آخر للتعب الناجم عن العمل من المنزل. باسم المرونة، نفقد الهياكل والبنى الزمنية الثابتة التي تعمل على استقرار الحياة وتنشيطها.[163]

163 Byung-Chul Han, “The Tiredness Virus,” *The Nation*, April 12, 2021, /https://www.thenation.com/article/society/pandemic-burnout-society

ربّما ظن أحدهم أنّه إذا كان التعب الاكتئابيّ ناجماً عن الطريقة التي ”ننتج بها ذواتنا“ باستمرار في الرأسمالية المتأخرة، فإنّ إجراءات الإغلاق المتصلة بالجائحة يجب أن تجعل الأمور أسهل؛ بما أنّنا ننعزل اجتماعياً أكثر فأكثر، من المفترض أن نتعرّض لضغوط أقلّ للإنجاز بدلاً من الآخرين. لكن لسوء الحظ

التأثيرُ معاكسٌ تقريباَ، إذ تنتقل تواصلاتنا الاجتماعية وتلك الخاصّة بأعمالنا إلى حدٍّ كبير لبرنامج Zoom والوسائط الاجتماعية الأخرى حيث ننهمك في عرض ذواتنا وإنتاجها بكثافة أشد، مهتمين بكيفية ظهورنا. لقد قُضيَ إلى حدّ كبير على فضاءات التواصل الاجتماعيّ التي نستطيع فيها الاسترخاء والهرب من ضغوط إظهار ذواتنا. إذاً تكمن المفارقة في أنّ "عرضنا" المستمرّ – مع ظروف الإغلاق والعمل من المنزل المتصلين بالجائحة – يتعزّز بمعنى ما: يتألق المرء بالطاقة على Zoom، ويجلس متعباً بمفرده في المنزل.

لذلك، يمكننا أن نرى بوضوح كيف أنّ شعوراً بسيطاً كالتعب هو أيديولوجيّ في نهاية المطاف، نتيجةً للعبة عرض الذات التي هي جزء من أيديولوجيتنا اليومية. حدّد ملادن دولار Mladen Dolar[164] مأزقنا باستعارة مصطلح من والتر بنيامين: جدلية في طريق مسدود. يُعَدّ هذا الموقف موقف ترقّب ننتظر فيه بقلق أن تبدأ الأمور بالتحرّك أيضاً، وأن ينفجر الجديد. لكنّ الشعور بالترقّب والخدر وتنامي عدم الاستجابة الذي يدفع أعداداً متزايدة من الناس إلى تجاهل الأخبار والتوقّف حتّى عن الاهتمام بالمستقبل مضلِّلٌ للغاية. إنّه يخفي حقيقة أنّنا نستغرق في زمن تغيير اجتماعيّ غير مسبوق. لقد تغيّر النظام الرأسماليّ العالميّ بصورة كبيرة منذ ظهور الجائحة، فالقطيعة الكبيرة التي انتظرناها بصبر نافد تحدث بالفعل.

164 اتصال شخصي.

يتمثّل ردّ الفعل العاديّ على هذه القطيعة المستمر – الشكل السائد للتفكير بالجائحة – في مزيج من الأشكال المتوقّعة: لم تتفجّر مع الجائحة توتّراتنا الاجتماعية والاقتصادية فحسب، بل ذُكّرنا بأنّنا جزءٌ من الطبيعة ولسنا مركزها أيضاً، وأنّ علينا في النتيجة أن نغيّر طريقة عيشنا بالحدّ من فردانيتنا، وتطويرَ أشكال جديدة من التضامن وقبولَ مكاننا المتواضع وسط الحياة على الأرض، أو كما عبّرت عن ذلك جوديث بتلر Judith Butler: عالمٌ صالحٌ لسكن البشر يعتمد على أرض مزدهرة ليس للبشر مكان في مركزها. نعارض السموم البيئية ليس كي نتمكّن نحن البشرَ من العيش والتنفس من دون خوف التسمّم فحسب، بل كذلك لأنّه لا بدّ من أن يكون للماء والهواء حياة لا تتمحور حولنا. عندما نفكّك الأشكال الجامدة من الفردانية في هذه الأزمنة المتشابكة، ففي وسعنا تخيّل الحصة الأصغر التي يجب أن تؤدّيها عوالم البشر على هذه الأرض التي نعتمد على تجدّدها، والتي تعتمد بدورها على دورنا الأصغر والأكثر وعياً.[165]

165 Judith Butler, “Creating an Inhabitable World for Humans Means Dismantling Rigid Forms of Individuality,” *TIME*, April 21, 2021, https://time.com/5953396/judith-butler-safe-world-/individuality

وجدتُ سمتين إشكاليتين على الأقل في تلك النبذة. أوّلاً، لماذا استهداف ”الأشكال الجامدة من الفردانية“؟ أليست المشكلة اليوم هي مشكلة معاكسة: غلبة أشكال فائقة المرونة من الفردانية مهيأة لاستيعاب أيّ أوضاع جديدة، تعيش تحت ضغط دائم ”لإعادة ابتكار“ نفسها مرّة تلو أخرى وتعاني من كلّ شكل مستقرّ بوصفه شكلاً ”قمعياً“؟ فضلاً عن ذلك أليست الجائحة صادمة لهذه الدرجة تحديداً لأنّها حرمتنا من طقوسنا اليومية الثابتة والجديرة بالثقة؟

ثانياً أليس من السهولة الإصرار على أنّه ”لا بدّ من أن يكون للماء والهواء حياة لا تتمحور حولنا“ أي علينا أن نتبنّى دوراً أكثر تواضعاً على الأرض؟ يتطلّب الاحتباس الحراريّ والتهديدات البيئية الأخرى منا تدخّلات جماعية مباشرة في بيئتنا والتوازن الهشّ لأشكال الحياة، وهي ستكون قوية بأسلوب لا يصدَّق. حين نقول إنّ ارتفاع معدّل درجة الحرارة على الصعيد العالميّ ينبغي أن يظلّ أقلّ من درجتين مئويتين فنحن نتحدّث (ونسعى لنتصرّف) مثل مديرين عامّين للحياة على الأرض، وليس مثل نوع متواضع من أنواع الحياة الأخرى. من الواضح أنّ تجدّد الأرض لا يعتمد على ”دورنا الأصغر والأكثر وعياً“، بل على دورنا الضخم وهو الحقيقة الكامنة تحت مجمل الحديث عن محدوديتنا وفنائنا. ما نحصل عليه هنا هو الشكل الأقصى من الفجوة القائمة بالفعل في العلم الحديث والنظرة الذاتية. إنّ العلم الحديث والنظرة الذاتية اللذان يهدفان إلى التغلّب على الطبيعة يرتبطان بصرامة بعلاقة وثيقة مع رؤية للبشرية بوصفها مجرد نوع آخر من الأنواع الحية على الأرض. إن كان علينا أن نهتم بحياة الماء والهواء أيضاً، فهذا يعني على وجه التحديد أن نكون ما دعاه ماركس ”كائنات عالمية“، عندما تكون قادرة على الخروج من ذواتنا وعلى النظر إلينا بوصفنا لحظة ثانوية من عمومية الطبيعة. في عصور ما قبل الحداثة عندما تصوّرت البشرية نفسها ذروة الخليقة، تضمّن هذا التصوّر على نحو مفارق موقفاً أشدّ تواضعاً.

تلكم هي المفارقة التي علينا الإبقاء عليها في هذه الأزمنة المجنونة: قبول أنّنا نوع من بين الأنواع الحية على الأرض، وفي الوقت عينه التفكير والتصرّف ككائنات عالمية. إنّ الهرب إلى التواضع المريح لمحدوديتنا وفنائنا ليس خياراً، بل هو دربٌ يفضي إلى كارثة.

يسهل الادّعاء بأثر رجعيّ – من وجهة النظر المتميّزة للإدراك المتأخر – أنّ أعضاء الكومونة جعلوا افتراضياً كلّ خطأ ممكناً وأنّه كان محكوماً عليهم بالإخفاق. لكنّهم شكّلوا بدايةً جديدة جذرياً؛ كانت كومونة باريس أوّل حكومة للعمال في التاريخ، المرّة الأولى التي يستولي فيها العمال الحديثون على السلطة وهذا كافٍ لينطبق عليها ما قاله هيغل عن الثورة الفرنسية:

> لم يسبق منذ وقفت الشمس في السماء ودارت الكواكب حولها أن تصوّر الإنسان أنّ وجوده يتركّز في رأسه – في الفكر – واستلهم منه في بناء عالم الواقع. كان أناكساغوراس Anaxagoras أوّل من قال إنّ العقل يحكم العالم. ولكن حتّى الآن لم يُقدم الإنسان على الإقرار بضرورة أن تحكم الفطنة الواقعَ الروحيّ. ومن ثمّ كان هذا فجراً عقلياً مجيداً وشاركت الكائنات المفكّرة جميعاً في بهجة هذه الحقبة. حرّكت مشاعر شخصية نبيلة عقول البشر في ذلك الوقت وجاشت حماسة روحية في أرجاء العالم.[167]

167 G. W. F. Hegel, *The Philosophy of History*, trans. J. Sibree (Kitchener, ON: Batoche Books, 1990), https://www.marxists.org/reference/archive/hegel/works/hi/lectures4.htm

رغم ذلك، سرعان ما لفت التعارضُ بين الحدثين النظر: بعثت الثورة الفرنسية مشاعرَ ساميةً في الجماهير في أرجاء أوروبا كافّة (تذكّروا وصف كانط الشهير لهذا التأثير)، في حين قوبلت كومونة باريس عموماً بالرعب. بعد أن مُنيت الكومونة بالهزيمة، حضر كُتّاب "متنورون" – من جورج ساند George Sand إلى غوستاف فلوبير Gustave Flaubert – محاكماتِ أعضاء الكومونة لمشاهدة حالات البشرية المنحطّة. كذلك نبذ نيتشه Nietzsche الكومونة بوصفها آخر تمرّد للعبيد... الاستثناء النبيل هنا كان العجوز فيكتور هوغو Victor Hugo الذي حارب في سبيل منح عفو عن أعضاء الكومونة المسجونين. تتمثّل الاستمرارية بين الثورة الفرنسية والكومونة في مستوى آخر. بدا استقبال الجمهور المستنير للثورة الفرنسية في طورها الأول حماسياً، لكنّ هذه الحماسة تحوّلت إلى رعب حين تولّى اليعاقبة الأمر: 1789 نعم، 1793 كلّا. كانت الكومونة على مستوى الديناميّة السياسية عودة ظهور لعام 1793، لكنّها لم تكن كذلك بالضبط، فقد حدث مع الكومونة أمر لم يحدث في 1793.

رغم إشادة ماركس بالكومونة بوصفها "شكلاً اكتُشف أخيراً" للتغلّب على الدولة وتحرير البروليتاريا – أي بوصفها أوّل اختبار لما ستبدو عليه "ديكتاتورية البروليتاريا" – علينا أن نلاحظ أنّ الكومونة كانت مفاجأة لماركس نفسه. نميل إلى التغاضي عن أنّ الماركسيين كانوا أقلية في الكومونة. في تفسير ماركس المظفّر للكومونة في كتابه *The Civil War in France* [**الحرب الأهلية في فرنسا**] الذي كتَبه في أثناء الكومونة وبعدها مباشرة، استأثر مجدّداً بحدث

همّشت فيه غالبية من الفوضويين (anarchist) والبرودونيين (Proudhonist) والباكونيين (Bakuninist) أتباعَه. فضلاً عن ذلك لم تتكوّن القاعدة الشعبية من العمال فحسب، بل كذلك من الحرفيين وأصحاب الأملاك الصغيرة وغيرهم. فقد كان الشخص الذي عدّه أعضاء الكومونة أنفسهم قائداً لهم أوغست بلانكي Auguste Blanqui، وهو اشتراكيٌّ ثوريّ فرنسيّ كان مهتمّاً بالثورة نفسها أكثر من اهتمامه بالمجتمع المستقبليّ الذي سينجم عنها. لم يؤمن بلانكي – خلافاً لماركس – بالدور المهيمن للطبقة العاملة ولا بالحركات الشعبية؛ لقد اعتقد أنّ على مجموعة صغيرة تحقيق الثورة، وستقيم هذه المجموعة ديكتاتوريةً مؤقّتة بالقوّة. ستسمح هذه المدة من الطغيان الانتقاليّ بإكمال أساسِ نظام جديد تُسلِّم السلطة بعدها إلى الشعب. باختصار، كان بلانكي لينينياً منذ البداية.

في 17 آذار/ مارس 1871، أمرَ أدولف تيير Adolphe Thiers – القائم بأعمال رئيس الحكومة الفرنسية في حالة الارتباك التي أعقبت هزيمة فرنسا في الحرب التي شنّتها على ألمانيا – باعتقال بلانكي لدرايته بما يمثّله من تهديد. بعد بضعة أيام، اندلع العصيان المسلّح الذي عملت عليه الكومونة وانتُخب بلانكي رئيساً للكومونة المتمرّدة. عرض أعضاء الكومونة إطلاق سراح سجنائهم جميعهم إذا أطلقت حكومة تيير سراح بلانكي، لكنّ عرضهم قوبل بالرفض. ماركس نفسه كان مقتنعاً بأنّ بلانكي – رغم نقده له – هو القائد الذي افتقدته الكومونة. لم يركّز بلانكي على برنامج الثورة. لقد كان هدفه تشكيل مجموعة منظّمة ستسحق الدولة وتستولي على السلطة. لا عجب في أنّ لينين نفسه رقص على الثلج في باحة الكرملين عندما استمرت مدة السلطة البلشفية أكثر من مدة الكومونة بيوم. ولكن هل كان النظام البلشفي وريثاً حقيقياً للكومونة؟ بلى، فقد شرعن البلاشفة عهدهم بدايةً بشعار: "كلّ السلطة للسوفياتات (المجالس المحلية)!" لكنّهم سرعان ما حلّوها.

إذاً، لماذا فاجأت الكومونة ماركس؟ ما الذي تعلّمه منها؟ لقد تصوّر الثورة قبل الكومونة مجموعةً من الإجراءات تنفّذها سلطة مركزية (تأميم المصارف ورعاية صحية شاملة وتعليم عام مجّانيّان وغير ذلك ممّا ورد في نهاية البيان الشيوعيّ). تمثّلت "مفاجأة" الكومونة في التنظيم الذاتيّ المحليّ للشعب ومحاولتها إقامة ديموقراطية تنمو من الأسفل، أي من المجالس المحلية بمشاركة فعّالة من الشعب (لم يقم اليعاقبة بمثل هذه الخطوة فقد كانت تعني في حالتهم حلّ الجمعية الوطنية، وهو السبب في فقدانهم السلطة بمجرّد تصويت في الجمعية).

أيمكن أن تظلّ الكومونة نموذجاً لنا اليوم؟ حين يُستنفد الشكل السائد للتمثيل السياسيّ، فهل في إمكان مشاركتنا السياسية أن تعيش حياة جديدة نتيجة يقظة الشعب المباشرة؟ بلى، لكنّ درس التاريخ القاسي يتمثّل في أنّ الصعوبة تأتي لاحقاً، أي حينما تتحوّل الحماسة الشعبية إلى تنظيم سياسيّ

فعّال ببرنامج محدّد. تذكّروا الطابع اللامركزيّ و"الفوضويّ" لمحتجّي "السترات الصفراء" في فرنسا وافتقارهم إلى القيادة. في وسع المرء أن يزعم أنّ هذا الطابع كان على وجه التحديد مصدر قوّتهم وساعدهم في كشف الفجوة بين التجربة العادية والتمثيل السياسيّ. بدلاً من مفوّض واضح يوجّه المطالب إلى الدولة ويطرح نفسه في النتيجة شريكاً في الحوار، نحصل على ضغط شعبيّ متعدّد الأشكال، وما يضع الذين يتولّون السلطة في حالة ذعر هو تحديداً أنّ هذا الضغط لا يمكن أن يتوضّع في عدو واضح، إنّما يظلّ نسخة لما يدعوه أنتونيو نيغري Antonio Negri "الحشد الغفير". إذا عبّر مثل هذا الضغط عن نفسه بمطالب ملموسة، فلن تكون هذه المطالب متعلّقة بما يتمحور الاحتجاج حوله... لكن لا بدّ في مرحلة ما أن تترجم المطالب الهيستيرية نفسها على هيئة برنامج سياسيّ (أو ستختفي). تعبّر مطالب المحتجّين عن استياء أعمق من النظام الرأسماليّ الديموقراطيّ الليبراليّ بذاته فلا يمكن تلبية المطالب إلّا نتيجة عملية التمثيل السياسيّ البرلمانيّ. بعبارة أخرى: تنطوي الاحتجاجات على مطلب أعمق بمنطق مختلف لتنظيم سياسيّ اقتصاديّ، وهنا تظهر الحاجة إلى قائد جديد لتفعيل هذا المطلب الأعمق.

الحلّ لا يتمثّل في التنظيم الذاتيّ للمجتمع المدنيّ وتعبئته بطريقة ما للاستيلاء على الدولة مباشرة والحلول محلّها. الحكم المباشر للحشد الغفير مجرّد وهم، فمن الضروريّ كقاعدة استدامته في جهاز دولة قويّ.

قال ترامب في خطاب تنصيبه في 2017: "لاحتفال اليوم معنىً شديد الخصوصية لأنّنا لا نقوم اليوم بمجرّد نقل السلطة من إدارة إلى أخرى أو من حزب إلى آخر، لكنّنا ننقل السلطة من واشنطن العاصمة ونعيدها إليكم، أنتم الشعب"[168]. حتّى الآن كانت النخُب تَحكم، ولكن: "كلّ هذا يتغيّر بدءاً من الآن وهنا لأنّ هذه اللحظة هي لحظتكم وإنّها تخصّكم. إنّها تخصّ كلّ المجتمعين هنا اليوم وكلّ من يشاهدنا في أرجاء أميركا كافّة. إنّه يومكم". ينبغي ألّا نأخذ هذه الكلمات مجرّدَ ديماغوجية رخيصة، وإنّما مؤشر على ما يُعَدّ مكمن الخطأ في صميم فكرة سلطة الشعب المباشرة. وعلى طريقة بلانكي، حاول الشعب بالتأكيد الاستيلاء على السلطة باقتحام مبنى البرلمان في كانون الثاني/ يناير 2021. بالطبع، كان "الشعب" في هذه الحالة الطبقة الوسطى البيضاء التي تعرّضت امتيازاتها للتهديد، لكنّ تحرّكاتهم كانت ردّاً على أزمة أعمق في التمثيل.

168 “2017 Donald Trump Inauguration Speech Transcript,” January 20, 2017, *POLITICO*, https://www.politico.com/story/2017/01/full-text-donald-trump-inauguration-speech-transcript-233907

أيكون الحلّ هنا ضرباً من العودة إلى الكومونة برؤيتها وممارستها للديموقراطية المباشرة؟ هل علينا أن نعارض حشد مبنى البرلمان "الزائف"

وحشد "السترات الصفراء" "الأصيل"؟ لعلّ ما نشهده اليوم مع سياسات "ما بعد الحقيقة" يؤذن بنهاية كامل فكرة الإرادة لشعب أصيلة وحقيقية، عادةً ما يجري التلاعب بها وتشويهها، إنّما علينا الكفاح من أجل تمثيلها اللائق. الوسيلة الوحيدة لهزيمة شعبوية ترامب ليست في الزعم بأنّها لا تمثّل الشعب حقاً وأنّه ينبغي أن تعبّر إرادة الشعب الحقيقية عن نفسها خارج الشعبوية؛ حقيقة أنّه يمكن "التلاعب" بإرادة الشعب بمثل هذه الطريقة الشاملة تشير إلى طابعها الخياليّ. وعلى طريقة هيغل، يجب في النتيجة قلب نقد التمثيل إلى نقد ما يُفترض أن يمثّله التمثيل. وللوصول إلى هذه النقطة علينا إجراء مقارنة ليس بين الكومونة والوضع الحالي، بل بين الوضع الحالي والثورة الفرنسية في 1848. تذكّروا وصف ماركس الذائع الصيت بجدارة لموقف الفلاحين السياسيّ بوصفهم طبقة في كتاباته عن ثورة 1848:

> يشكّل الفلاحون الصغار كتلة ضخمة يعيش أعضاؤها في ظروف متشابهة ولكن دون أن يدخلوا في علاقات متشعبة في ما بينهم. إنّ أسلوبهم في الإنتاج يعزلهم الواحد عن الآخر بدلاً من أن يدفعهم إلى علاقات متبادلة... بهذه الطريقة، تتكون الجمهرة العظمى من الأمة الفرنسية بمجرد إضافة مقادير متناظرة مثلما تُكوَّن رؤوس البطاطا في كيس بطاطا... إنّهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم ولا بدّ أن يمثّلهم غيرهم. ولا بدّ لممثّلهم أن يظهر في الوقت عينه سيداً لهم وسلطةً فوقهم وسلطةً حكومية غير محدودة تحميهم من الطبقات الأخرى وترسل إليهم الغيث وضوء الشمس من فوق. ولهذا، يجد النفوذ السياسيّ للفلاحين الصغار تعبيره النهائيّ في واقع أنّ السلطة التنفيذية تُخضِع المجتمع لنفسها.[169]

169 Karl Marx, "The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte," in *Marx and Engels Selected Works* (Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1955), vol. 1.

ألم يكن الأمر عينه في مصر عندما أطاحت احتجاجات الربيع العربيّ – بمطالبها بتمثيل سياسيّ لائق – بنظام مبارك وجاءت بالديموقراطية؟ لكن بالديموقراطية تَوجّه أولئك غير الممثّلين إلى التصويت وأوصلوا "الإخوان المسلمون" إلى السلطة، في حين هُمّش المشاركون في الاحتجاجات الشعبية وغالبيتهم من شبّان الطبقة الوسطى المتعلمين بأجندة الحرية الخاصّة بهم. تنفجر اليوم مشكلة التمثيل في بلدان الغرب المتطوّرة أيضاً، إذ إنّ طبقات بأسرها لا تُمثِّل نفسها، بل ترفض بقوّة أن تكون ممثَّلة لأنّها تتصوّر أنّ شكل التمثيل بذاته زائف، وعندما يحتشدون يكون احتشادهم في ظلّ راية زعيم شعبويّ. ربما يكون ما يلي أحد التعريفات الموجزة للشعبوية: حركة الذين لا يثقون بالتمثيل السياسيّ. إنّ ما قاله ماركس عن احتجاجات الفلاحين

الفرنسيين في 1848 يناسب تماماً الهجوم على مبنى البرلمان: ”دخولهم في الحركة الثورية بمكرهم الأخرق وسذاجتهم المسرفة وسموهم البليد وتطيّرهم المحسوب وعرضهم الهزليّ المثير للشفقة ونشازهم التاريخيّ الغبيّ المدروس والعرض التهريجيّ التاريخيّ عالمياً والهيروغليفية غير المفهومة بالنسبة إلى العقل المتحضّر، اتّسم هذا الرمز بكلّ جلاء بسِمات تلك الطبقة التي تمثّل البربرية في قلب الحضارة“[170]. كان المهاجمون ”الثوريون“ ماكرين على نحو أخرق (يظنون أنّهم يخدعون أيّ شخص بكلماتهم الجوفاء) وساذجين بإسراف (في اتّباع ترامب تجسيداً للحرية الشعبية) وسامين ببلادة (يستحضرون التقليد العظيم للآباء المؤسّسين الذي خانته حكومة الولايات المتحدة)؛ لقد تحرّكوا بموجب تطيّرٍ محسوب (لم يؤمنوا في الواقع بنظريات المؤامرة الخاصة بهم التي اعتمدوا عليها) وعرضوا مهزلة مثيرة للشفقة (عبر محاكاة الحماسة الثورية) ومثّلوا نشازاً تاريخياً غبياً مدروساً (بالدفاع عن قيم الحرية الأميركية القديمة)... بناءً على هذا كانوا حقاً ”هيروغليفية غير مفهومة“: انفجار بربرية معادية للتنوير أدخلت تناحرات خفية إلى حضارتنا.

170 Karl Marx, “The Class Struggles in France, 1848 to 1850,” in *Selected Works*, vol. 1 (Moscow: Progress Publishers, 1969), https://www.marxists.org/archive/marx/works/1850/class-struggles-france/ch02.htm

غالباً ما يُلتقط هذا الاتجاه المعادي للتنوير الذي يسم عصرنا في مصطلح ”حقبة ما بعد الحقيقة“. يقودنا حادث وقع أخيراً في نظام الولايات المتحدة القانونيّ إلى جوهر هذه الظاهرة العجيبة. ففي آذار/ مارس 2021، رفعت شركة Dominion Voting Systems المختصة بأجهزة وبرمجيات التصويت الإلكترونيّ دعوى تشهير على المحامية اليمينية المؤيدة لترامب سيدني باول Sidney Powell لادّعاءاتها أنّ الشركة – مصنّعة أجهزة التصويت الإلكترونيّ التي استخدمتها بعض المقاطعات في انتخابات 2020 – حوّلت أصواتاً لمصلحة الرئيس ترامب إلى أصواتٍ لمصلحة الرئيس المنتخب بايدن (فضلاً عن ادّعائها أنّ للشركة ارتباطات بنظام الراحل هوغو شافيز في فنزويلا). كان ردّ باول على الدعوى القضائية مثيراً للعجب، فقد زعمت في دعوى قضائية جديدة أنّ العقلاء لن يصدّقوا تأكيداتها بحدوث تزوير بعد انتخابات 2020 الرئاسية:

> بالفعل، وصف المدّعون أنفسُهم البيانات المطروحة بأنّها ”اتّهامات جامحة“ و”ادّعاءات غريبة“، وعدّوها مراراً وتكراراً ”مستبعدة أصلاً“، بل ”مستحيلة“. إنّ مثل هذه التوصيفات عن التصريحات التشهيرية المزعومة تدعم أكثر موقف المدّعى عليهم بأنّ العقلاء لن يقبلوا مثل هذه التصريحات بوصفها حقائق، إنما ينظرون إليها بوصفها مجرّد ادّعاءات تنتظر أن تتفحّصها المحاكم نتيجة عملية التخاصم.[171]

171 Katelyn Polantz,“Sidney Powell Argues in New Court Filing that No Reasonable People Would Believe Her Election Fraud Claims,” CNN, March 23, 2021, https://edition.cnn.com/2021/03/22/politics/sidney-powell-dominion-lawsuit-election-fraud/index.html

يستند هذا المنطق إلى أنّ هذه التصريحات تشهيرية حقاً (يمكن مقاضاة المرء بسببها) إذا أخذها على محمل الجدّ بعض العقلاء على الأقلّ. إذاً، إن وصِفت التصريحات الإشكالية بأنّها ”غريبة“ و”مستبعدة“، أي إن لم يكن ممكناً أن يأخذها على محمل الجدّ أشخاص عقلاء، فهي ليست تشهيراً ولا يمكن مقاضاة المرء بسببها... في وسع المرء أن يتخيّل دفاعاً عن هتلر مُصاغاً بالمصطلحات عينها، أي أنّ فكرته عن مؤامرة اليهود البلاشفة كانت غريبة للغاية ومستبعدة، ومن غير الممكن لشخص عاقل أن يأخذها على محمل الجدّ... تكمن المشكلة في أنّ ملايين لاقوا حتفهم بسبب هذه الفكرة الغريبة. يصدق أمر مماثل (رغم أنّه ليس من الوزن عينه بطبيعة الحال) على باول: تسبّبت تصريحات مثل تصريحاتها في حشد ملايين وقرّبت الولايات المتحدة من حافة الحرب الأهلية وتسبّبت في وقوع قتلى.

السؤال الأساسيّ هو: إذا كانت باول تدرك حين نشرت تشهيراتها أنّ العقلاء جميعهم سيرونها سخيفةً وباطلة، فلماذا نشرتها؟ للتلاعب بحشد من غير العقلاء وإغوائهم عن طريق تعبئة غرائزنا غير العقلانية؟ الأمور أكثر تعقيداً هنا: نعم، كانت باول مدركة أنّه لا توجد أسس عقلانية لتشهيراتها وكانت تعلم أنّها تنشر أكاذيب، لكن بدا الأمر كأنّها وقعت في فخ نصبته بنفسها فتماهت مع ما كانت تعلم أنّه ليس صحيحاً. لم تكن متلاعبةً تستثني نفسها من أكاذيبها. لقد كانت بالضبط في موضع ”ضحاياها“ عينه.

تتّخذ تشهيراتها شكل الشائعات، لكنّها شائعات ارتقت إلى مرتبة الخطاب العام. تُمثّل باول الحقبة الجديدة التي تنشط فيها الشائعات صراحةً في الفضاء العام وتشكّل رابطاً اجتماعياً.[172] يُعَدّ أسلوبها في الإنكار الولعيّ التزاماً بالإنكار التقليديّ في ما يتعلّق بالكرامة العلنية لشخص ما (”أعلم أنّ لزعيمنا خطايا خاصة، لكنّني سأتصرّف كأنّه خالٍ منها للحفاظ على كرامته“): ”رغم أنّني لا أعلم في الواقع إذا كانت هذه الشائعات صحيحة، فسأنشرها كأنّها صحيحة...“.

172 انظر:

“Four Reflections on Power, Appearance, And Obscenity,” in Slavoj Žižek, *Pandemic! 2: Chronicles of a Time Lost* (New York, NY: OR Books, 2020).

واجهتُ منذ عقود منطقاً مشابهاً عندما خُضت نقاشاً حاداً مع معادٍ للسامية يُدافع عن صحة ”بروتوكولات صهيون“ (وصف لخطة يهودية سرية للهيمنة على العالم اختلقتها الشرطة السرية القيصرية الروسية قرابة 1900)، أشرت إلى الكيفية التي أثبت فيها بأسلوب مقنع أنّها مختلقة (كثير من الأخطاء

الواقعية في النصّ توضّح بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّها زائفة)، لكنّ المعادي للسامية أصرّ على أنّ البروتوكولات حقيقية. وفي معرض ردّه على اللوم الواضح بصدد وجود أخطاء في النصّ، حاجج في أنّ اليهود أنفسهم هم الذين أقحموا الأخطاء لإظهار أنّ البروتوكولات مزيفة إذ لا يأخذها الأغيار على محمل الجدّ في حين يكون من هم على دراية بكلّ شيء قادرين على استخدامها مبدأً توجيهيّاً خالياً من الشكوك.

تحاول سيدني باول أن تسوّق لنا حقيقةً ما حاول المعادي للسامية المجنون تخيّله، فهي ترفض ما قالت عنه بنفسها إنّه غريب ومستبعد ويجب ألّا يؤخذ على محمل الجد إذ تتأكّد أنّ كلماتها ستستمر في إحداث تأثيرات حقيقية. على هذا النحو، تعمل الأيديولوجيا في حقبة ما بعد الحقيقة الخاصّة بنا. لن يعود في وسعنا اليوم – نحن عالقون في عملية تفكّك تدريجيّ للفضاء العام المشترك – التعويل على الثقة بالشعب وبأنّه ما لم نمنح الشعب فرصة تحطيم سحر التلاعبات الأيديولوجية، فلن يتوصّل إلى إدراك حقيقتها الملموسة. هنا نواجه المحدودية المهلكة لطابع "انعدام القيادة" لدى المحتجّين الفرنسيين – هو طابعٌ أُشيدَ به كثيراً – ولتنظيمهم الذاتيّ الفوضويّ؛ ليس كافياً لقائد أن يصغي إلى الشعب ويصيغ اهتماماته ورغباته في برنامج. كان العجوز هنري فورد Henry Ford محقّاً بتجاهل ما أراده الناس عندما طوّر السيارة المنتَجة على نحو متسلسل، وكما عبّر عن ذلك بإيجاز: لو سألت الناس ماذا يريدون، فسيكون جوابهم: "حصاناً أفضل وأقوى لجرّ عرباتنا". ينطبق الأمر عينه على قائد سياسيّ نحتاجه اليوم. أراد محتجّو "السترات الصفراء" حصاناً أفضل (أقوى وأرخص)؛ المفارقة في هذه الحالة أنّهم أرادوا وقوداً أرخص لسياراتهم. ينبغي أن تتاح لهم رؤية مجتمع لا تكون فيه أسعار الوقود مهمّة مثلما لم يعد سعر علف الحصان مهمّاً بعد إدخال السيارات.

لكنّ هذا بالطبع ليس سوى جانب واحد من جوانب كونك قائداً ناجحاً. الجانب الآخر، الجانب النقيض، هو القدرة على اتّخاذ قرارات صعبة عندما لا يكون تجنّبها ممكناً: أيّ مجموعة من الجنود ستضحي في ساحة المعركة وأيّ مريض سيُترك ليموت عندما لا تتوافر موارد كافية وما إلى ذلك. وكما يقول طبيب سابق في المسلسل التلفزيونيّ New Amsterdam: "يعتمد القادة خيارات تجعلهم لا ينامون الليل. إن نمت بهناء، فلن تكون منهم". تكمن المفارقة في أنّ التجاوز الذي لا تستطيع استيعابه آليات التمثيل السياسيّ الانتخابيّ لا يمكنه أن يجد تعبيراً ملائماً إلّا في قائد أو هيئة قيادية قادريْن على فرض مشروع اجتماعيّ واقتصاديّ بعيد المدى ولا تقيّده مدة محدودة تفصل بين انتخابيين... ألا يبدو ذلك مثل عسكرة شاملة؟ بلى، الشيوعية المقبلة ستكون شيوعية حرب أو لن تكون هنالك أيّ شيوعية.[173]

173 للاطلاع على مناقشة أكثر تفصيلاً، انظر:

Fredric Jameson et al., ed. Slavoj Žižek, *An American Utopia: Dual Power and the Universal Army* (London: Verso Books, 2016).

هذه هي الكيفية التي ينبغي لنا أن نتأمل فيها إرث الكومونة اليوم: بدلاً من الضياع في ذكريات الحنين إلى الماضي علينا التركيز على كيفية تخيّل تعبئة شعبية اليوم في ظروف طبقة عاملة مشتّتة يجتازها عدد من المصالح المتضاربة. وكما أدرك هيغل تمام الإدراك، لا يعكس قائد (أو هيئة قيادة جماعية) محتوىً أساسياً يسبق وجودها، أي "إرادة الشعب الحقيقية". يخلق القائد الحقيقيّ الشعبَ حرفياً بوصفه عاملاً سياسياً موحَّداً انطلاقاً من فوضى مشوشة من ميول غير متّسقة. حين اندلعت في صيف 1953 احتجاجات العمال في برلين الشرقية، نظَم بريخت قصيدة قصيرة بعنوان "الحل":

بعد انتفاضة 17 حزيران/ يونيو
وزع أمين عام اتحاد الكتاب
منشورات في شارع ستالين
تنصّ على أنّ الشعب
قد خسر ثقة الحكومة
ولا يمكنه استعادتها
سوى بجهود مضاعفة. ألا يكون من الأسهل
على الحكومة في هذه الحالة
أن تحلّ الشعب
وتنتخب غيره؟

عادة ما تُقرأ هذه القصيدة بوصفها استنكاراً ساخراً لغطرسة الحزب، ولكن ماذا لو أخذناها وصفاً واقعيّاً لما يحدث في كلّ عملية تحرّرية جذرية حقيقية تعيد فيها القيادة حرفياً خلق الشعب، و"تنتخب" شعباً آخر كقوّة سياسية منضبطة؟ علينا أن نتخلّى عن الحلم أو الأمل في أنّ النسوية ومعاداة العنصرية ونضالات مجتمع الميم وحماية الأقليات ونضالات العمال والنضالات من أجل حرية التعبير وأعداء خطاب الكراهية وجهود حرية المعلومات وغير ذلك ستنضم في لحظة ما إلى حركة كبيرة واحدة تسير فيها النسويات المتحولات والمسلمات جنباً إلى جنب ويحتجّ فيها الطلاب الذين يشعرون أنّ حريتهم الفكرية مقيّدة مع العمال الذين لا تسمح لهم أجورهم بالبقاء على قيد الحياة. ومن هذا المنطلق، اشتكى آلان باديو من أنّ المشاركين في احتجاجات Occupy Wall Street [احتلّوا وول ستريت] وأولئك المحتجّين في تركيا ومصر في 2011 جاء معظمهم من الطبقات الوسطى المتعلّمة ولم يحرّكوا الطبقة العاملة الصامتة. بإشارة باديو إلى تحرّكَيْ "السترات الصفراء" في فرنسا و"احتلوا وول ستريت"، يخطو خطوةً إضافيةً إلى الأمام ويقول إنّ الطبقة

العاملة في العالم الغربيّ المتطوّر هي بالفعل جزء مما دعاه لينين "أرستقراطية العمال" التي تميل إلى العنصرية وتفسدها الطبقة الحاكمة والمحرومة أيّ إمكانية تحرّرية إذ إنّها لم تعد حليفاً. لقد انقضى حلم المشهد الشهير في 1968 حين ذهب الطلاب إلى مصنع سيارات رينو ليلتقوا بالعمال فيه. علينا بالأحرى أن نحاول إقامة رابط بين المثقفين المتعطلين عن العمل وغير المستقرين وبين الطلاب المستائين والمهاجرين... ما يتربص خلف هذه الجهود هو بحث يائس عن تجسّد حاليّ لعامل تحرّريّ حقيقيّ سيحلّ محلّ طبقة ماركس العاملة. مرشح باديو هو "البروليتاريون الرحّل".

بفقدان مرجعية أساسية للشعب على المرء أن يتخلّى أخيراً عن أسطورة براءة الكومونة كأنّ أعضاءها كانوا شيوعيين قبل السقوط (إرهاب القرن العشرين "الشموليّ") وكأنّ حلم التعاون المشترك المباشر في الكومونة تحقّق من دون هياكل وسيطة مستلَبة، حتّى لو أكل الناس الفئران فعلياً... ماذا لو كانت مهمتنا الصحيحة اليوم – بالتناقض مع كيفية التغلّب على استلاب مؤسّسات الدولة وإقامة مجتمع يتّسم بشفافية ذاتية – عكس ذلك تقريباً: إحداث "استلاب جيد" وابتكار نمط مختلف من سلبية الغالبية؟ تتمثّل صيغة تعبئة الحشد في نسخة سياسية من عبارة فرويد "Wo Es war, soll Ich Werden" (سيحل الوعي محلّ اللاوعي): لا بدّ أن يحلّ التنظيم الحزبيّ محلّ الحشد الهيوليّ، أو كما كان هيغل سيعبّر: حيث يتخمّر الجوهر الشعبيّ الهيوليّ لا بدّ أن تفرض الذات الحسنة التنظيم النظامَ والوجهة. لكن علينا اليوم إضافة انعطافة أخرى إلى هذه الصيغة وأن نتحرّك من الذات رجوعاً إلى الجوهر، أي إلى جوهر آخر تخلقه الذات ونظام اجتماعيّ جديد نتمكّن فيه من العيش بثقة ومتابعة حياتنا.

إيقافها ومعسكرات اعتقال وفقاعات الديون وانهيار التصنيع وعمليات اختطاف متكرّرة وفساد واسع النطاق وما شابه).[174]

[174] Cory Doctorow, “Networked Authoritarianism May Contain the Seeds of Its Own Undoing,” BoingBoing, November 25, 2019, https://boingboing.net/2019/11/25/mote-in-the-cctvs-eye.html

لقد اكتشف الغرب استخداماً أفضل للرقابة الرقمية: ديموقراطية شبكية يدعوها بعضهم ”رأسمالية المراقبة“ إذ يُتسامح مع الديموقراطية والحرية ولكنّهما تُفرغان من فعاليتهما. يوضّح هذا الشكل الجديد من الرقابة الرقمية سبب تمرّد الناس في الديموقراطيات الليبرالية: إنّهم لا يتمرّدون على الحرية بل يتمرّدون على ما تقوله لهم تجاربهم اليومية، وهو أنّ الديموقراطية الشبكية هي بمعنىً ما أشدّ استبداداً من السلطوية الشبكية.

من الشائع اليوم التشديد على الطابع ”الإعجازيّ“ لسقوط جدار برلين قبل ثلاثين عاماً. لقد كان أشبه بحلم تحقّق وتحقّق ما لا يمكن تخيّله وما لم يكن ممكناً قبل بضعة أشهر من ذلك الوقت: تفكّك الأنظمة الشيوعية التي انهارت كبيت من الورق. ومن كان في وسعه في بولندا أن يتخيّل انتخابات حرّة يفوز فيها ليخ فاليسا Lech Wałęsa رئيساً للبلد؟ رغم ذلك لا بدّ من إضافة أنّ ”معجزة“ أكبر حدثت بعد بضع سنواتٍ فحسب في 1995: عودة الشيوعيين السابقين إلى السلطة نتيجة انتخابات ديموقراطية حرّة هُمّش فيها فاليسا وباتت شعبيته أقلّ بكثير من شعبية الجنرال فويتشخ ياروزلسكي Wojciech Jaruzelski الذي سحق قبل عقد ونصف حركة ”التضامن“ بانقلاب عسكريّ. أتت المفاجأة الثالثة بعد عقدين: تقع بولندا حالياً في قبضة الشعبويين اليمينيين الذين يرفضون الشيوعية والديموقراطية الليبرالية معاً... إذاً ما الذي جرى هنا وما الذي أفضى إلى هذه التقلّبات غير المتوقّعة؟

قد يميل المرء إلى توضيح ذلك الأمر بمصطلحات ”الواقعية الرأسمالية“ إذ كانت المشكلة ببساطة أنّه لم تكن لدى الأوروبيين الشرقيين صورة واقعية عن الرأسمالية وكانت لديهم توقّعات صبيانية طوباوية. في الصباح التالي لحماسة أيام النصر المُسكرة، كان على الناس أن يصحوا ويخضعوا لعملية مؤلمة لتعلّم قواعد الواقع الجديد، أي الثمن المدفوع مقابل الحرية السياسية والاقتصادية. يبدو الأمر كأنّ على اليسار الأوروبيّ أن يموت مرتين: أوّلاً يساراً شيوعيّاً ”شموليّاً“، ثمّ يساراً ديموقراطياً معتدلاً راح يتراجع تدريجياً منذ تسعينيات القرن العشرين.

غير أنّ الأمور أكثر تعقيداً بقليل، فحينما احتجّ الناس على الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية لم تكن الرأسمالية هي ما يدور في خَلد الغالبية العظمى من الناس، فلقد أرادوا ضماناً اجتماعياً وتضامناً ونوعاً تقريبياً من العدالة. أرادوا حرية أن يعيشوا حياتهم خارج رقابة الدولة وأن يجتمعوا ويتحدّثوا كما يحلو لهم وحياة بسيطة حافلة بالصدق والإخلاص والتحرّر من التلقين

الأيديولوجيّ البدائيّ والنفاق السافر السائد... باختصار شديد، كانت المُثُل الغامضة التي قادت المحتجّين مستمدّة إلى حدٍّ بعيد من الأيديولوجيا الاشتراكية نفسها. وكما تعلّمنا من فرويد: يعود ما هو مكبوت بصورة مشوّهة. في أوروبا، عاد مكبوت الاشتراكية في مخيلة المنشقّين على هيئة شعبوية يمينية.

أثبت يورغان هابرماس في تفسيره سقوط الشيوعية في أوروبا الشرقية أنّه آخر أتباع يسار فوكوياما، لقبوله الصامت بأنّ النظام الديموقراطيّ الليبراليّ القائم هو أفضل نظام ممكن وأنّه ينبغي لنا ألّا نتحدى فرضياته الأساسية وفي الآن عينه علينا أن نكافح لجعله أكثر عدالة. ولهذا رحّب تحديداً بما عدّه يساريون كُثر قصوراً كبيراً في الاحتجاجات المناهضة للشيوعية في أوروبا الشرقية: حقيقة أنّ هذه الاحتجاجات لم تكن بدافع أيّ رؤىً جديدة لمستقبل ما بعد الشيوعية. وعلى حدّ تعبيره، كانت ثورات أوروبا الوسطى والشرقية مجرّد ثورات "تصحيحية" أو "استدراكية" تَمثّل هدفها في تمكين تلك المجتمعات من الظفر بما كان الأوروبيون الغربيون يمتلكونه بالفعل. بعبارة أخرى: العودة إلى الحالة الطبيعية التي تعيشها أوروبا الغربية.

مع ذلك، إنّ حركة "السترات الصفراء" واحتجاجات هونغ كونغ والاحتجاجات المشابهة الأخرى اليوم (في إسبانيا وكوريا الجنوبية وأماكن أخرى) ليست بتاتاً تحرّكات استدراكية، فهي تُجسّد الانقلاب غير الاعتياديّ الذي يميّز الوضع العالميّ الحالي. لقد عاد التناحر القديم بين "الناس العاديين" والنُخب الرأسمالية المالية مع الانتقام، أي مع انفجار "الناس العاديين" احتجاجاً على النُخب المتّهمة بأنّها تتعامى عن معاناتهم ومطالبهم. غير أنّ الجديد هو إثبات اليمين الشعبويّ أنّه أكثر براعة من اليسار في توجيه هذه الانفجارات نحو وجهته. لذلك، كان آلان باديو محقّاً تماماً بقوله بشأن "السترات الصفراء": "*Tout ce qui bouge n'est pas rouge*" (ليس كلّ ما يتحرّك – يثير الاضطرابات – أحمر). يشارك اليمين الشعبويّ حالياً في تاريخ عريق من الاحتجاجات الشعبية التي كانت بمعظمها يسارية. بل إنّ بعض ثورات اليوم يمكن عدها حالة ممّا يُدعى أحياناً ثورات الأغنياء. تذكّروا أنّ كتالونيا – مع مقاطعة الباسك – هي الجزء الأغنى من إسبانيا وأنّ هونغ كونغ أغنى بكثير من الصين من حيث معدّل الدخل الفرديّ.

إذاً هنا تكمن المفارقة التي علينا مواجهتها: خيبة الأمل الشعبوية من الديموقراطية الليبرالية هي الدليل على أنّ ثورة 1989 لم تكن مجرّد ثورة استدراكية. كان هدف الاحتجاجات التي أدّت إلى سقوط الأنظمة الشيوعية أكثر من العودة إلى الحالة الطبيعية الرأسمالية الليبرالية، وكان اليمين الشعبويّ الجديد هو الذي نجح في التقاط هذا الاستياء الشديد من الحالة الطبيعية الرأسمالية. تحدّث فرويد في كتابه *Unbehagen in der Kultur* [**قلق في الحضارة**] عن السخط أو القلق في الحضارة؛ اليوم وبعد ثلاثين عاماً من

سقوط الجدار، تقف الموجة الجديدة المستمرّة من الاحتجاجات في الديموقراطيات الليبرالية نفسها (مثالها النموذجيّ "السترات الصفراء" في فرنسا) شاهداً على نوع من القلق في الرأسمالية الليبرالية، والسؤال الأساسيّ: من سيكون الأكثر بروزاً في التعبير عن هذا السخط؟ هل سيُترك للشعبويين القوميين كي يستغلوه؟ هنا تكمن مهمّة اليسار الكبيرة: ترجمة السخط المختمر إلى برنامج تغيير قابل للتطبيق.

في المشهد الأخير من فيلم V for Vendetta [ثاء رمزاً للثأر]، يتقدّم آلاف من أهالي لندن غير المسلحين الذين يرتدون أقنعة Guy Fawkes نحو مجلسي البرلمان، ومن دون تلقّي أوامر، يسمح الجيش للحشد بالدخول ويتولّى الشعب زمام الأمور... حسناً إنّها لحظة انتشاء لطيفة، لكنّني مستعد لبيع أمي في سوق النخاسة مقابل مشاهدة الجزء الثاني من الفيلم. ما الذي سيحدث غداة انتصار الشعب حينما ستنقضي العاطفة الجياشة وتعود الحياة اليومية إلى مجراها الطبيعيّ؟ كيف سينظّم الناس (يعيدون تنظيم) حياتهم اليومية؟

يُقدّم توماس بيكيتي إجابة عن هذا السؤال في كتابه *Capital and Ideology* إذ يقترح ديموقراطية اجتماعية مُجذّرة.[175] يتمثّل مقترح بيكيتي في إعادة تطبيق دولة الرفاهية وتجذيرها، ليس بتأميم الثروات كافّة كما في شيوعية النمط السوفياتيّ إنّما بالإبقاء على الرأسمالية وإعادة توزيع الأصول بمنح كلّ بالغ مبلغاً مقطوعاً من المال في عمر الخامسة والعشرين. ستسمح الضرائب التصاعدية على الدخل التي يقترحها للحكومات بمنح دخل أساسيّ يعادل 60% من متوسط الأجر في الأمم الغنية وتغطية تكاليف إنهاء الاعتماد على الكربون في الصناعة. إضافة إلى ذلك ينبغي أن يحظى الموظفون بنسبة 50% من مقاعد مجالس إدارات الشركات. كذلك ينبغي أن يُحدَّد سقف قوّة التصويت حتّى بالنسبة لأكبر مالكي الأسهم بعشرة بالمئة، وعلينا تطبيق ضريبة كربون إفرادية باستخدام بطاقة شخصية تتعقّب مساهمة كلّ شخص في الاحتباس الحراريّ... لكن ماذا لو لم يرغب الأغنياء في دفع معدلات المصادَرة الضريبية هذه وقرّروا الهجرة؟ يقترح بيكيتي رسم خروج ونظام عدالة عالميّ يجعل التواري من المصادَرة في أيّ مكان مستحيلاً. لبلوغ هذه الغاية، يتخيّل بيكيتي برلماناً فوق وطنيّ يتألف من أعضاء ينتمون إلى المجالس التشريعية الوطنية.

175 بيكيتي محقّ في تشديده على الأيديولوجيا التي تؤدّي دوراً أساسياً في المجتمع حتّى في عصر يُشيد بنفسه بوصفه ما بعد أيديولوجي. لكنّ تركيز بيكيتي على الأيديولوجيا بالغ السذاجة بمجمله، فهو يفهمها بطريقة حرفيّة تماماً قائلاً إنّ اليسار كان يستطيع أن يمضي أبعد من ذلك في تطبيق دولة رفاهية ديموقراطية اجتماعية لكنّه أضاع هذه الفرصة منذ سبعينيات القرن العشرين بسبب العماء الأيديولوجي.

خير مثال على الطرفين النقيضين لمأزق اليسار الراديكاليّ اليوم هو الحوار التلفزيونيّ الثريّ والطويل بين بيكيتي وآلان باديو.[176] تتمثّل رؤية باديو في أنّ البروليتاريا المترحّلة – المنبثقة قوّةً ثورية عالمية جديدة تتجاوز الدولة القومية

والديموقراطية البرلمانية – تُلغي الرأسمالية. علينا من وجهة نظر باديو أن نتجاوز الديموقراطية كما نعرفها نحو أممية ثورية جديدة. ورغم تقديم مقترحٍ بيكيتي لنفسه بوصفه براغماتياً غير أنّه ليس أقلّ طوباوية لأنّه يبحث عن حلٍّ ضمن إطار الرأسمالية والإجراءات الديموقراطية.

176 انظر:

"Contre Courant – Avec Thomas Piketty," QG TV, November 18 2019, https://www.youtube.com/watch?v=roNWZwo0lS4

كذلك هنالك حلم ثالث: إحياء الديموقراطية المحلية، وهو من وجهة نظري أسوأ من مقترحَي بيكيتي وباديو. على ممارسات "الديموقراطية المباشرة" اليوم من الأحياء الفقيرة إلى الثقافة الرقمية "ما بعد الصناعية" أن تعتمد على جهاز دولة. يتوقّف بقاؤها على نسيج كثيف من آليّات صناعية "مستلَبة": من أين تأتي المياه والكهرباء؟ من يضمن سيادة القانون؟ إلى من نلجأ للحصول على الرعاية الصحية؟ كلّما كان مجتمعٌ ما محكوماً ذاتياً، كان على هذه الشبكة أن تعمل بسلاسة وبأسلوب غير منظور. ربما علينا تغيير هدف نضالات التحرّر من التغلّب على الاستلاب إلى فرض نوع صحيح من الاستلاب، أي كيف نحقّق الأداء السلس للآليّات الاجتماعية (غير المرئية) "المستلَبة" التي تحافظ على فضاء الجماعات "غير المستلَبة"؟ هذا ما يجعل دولة الرفاهية جذّابة إلى هذا الحدّ: ليس عليّ مساعدة الفقراء بنفسي، بل سيفعل ذلك جهاز حكوميّ مجهول الهوية نيابة عني ويتيح لي تجنّب مواجهة المستبعَدين والمعوزين وجهاً لوجه.

إذاً – مرّة أخرى – لماذا لا أزال متشبّثاً بهذه اللعنة التي تُسمّى شيوعية وأنا أعلم أنّ مشروع القرن العشرين الشيوعيّ قد أخفق معلناً ولادة أشكال جديدة من الإرهاب الإجراميّ؟ دعوني أبدأ بحقيقة أنّنا نعيش في عصر تتخلّله احتمالات تُنذر بنهاية العالم؛ هنالك تعدّد للتهديدات المنذرة بنهاية العالم، ونقيض حقيقيّ لها. شريطة أنّه عندما أتحدّث عن تهديدات تُنذر بنهاية العالم، فأنا مدرك تمام الإدراك مدى غموض هذا المجال وصعوبته وأنّه لا يفصل سوى خيط رفيع بين التصورات الدقيقة للمخاطر الحقيقية والسيناريوات الخيالية للكارثة العالمية التي تنتظرنا. ثمّة متعة خاصّة بالعيش في نهاية الزمان وبانتظار كارثة ما، والمفارقة تكمن في أنّنا نتيجة التركيز تحديداً على الكارثة المقبلة نتجنّب فعلياً مواجهتها. وأنا لا أتبنّى الشيوعية بوصفها حلّاً لمصائبنا، بل بوصفها (لا تزال) التسمية الأفضل التي تُمكّننا من القبض على المشكلات التي تواجهنا اليوم وتصوّر مَخرج منها.

نمّر بلحظة انقلاب مثيرة للاهتمام لو عاشها هيغل، لابتهج بها. في العقد أو العقدين المنصرمين، تحوّلت عبارة فوكوياما عن "نهاية التاريخ" (حيث لدينا أفضل تشكيلة اجتماعية ممكنة) إلى نسختها المنذرة بنهاية العالم؛ لم نصل

بعد إلى نهاية التاريخ لكنّنا نقترب من النهاية تحت ستار كارثة تُنذر بنهاية العالم... ثمّة سمة شكلية تبقى هي نفسها في نسختَيّ "النهاية": الإحساس بالاستمرار اللانهائيّ. عالم فوكوياما هو عالم لا يحدث فيه ما هو جديد أو عظيم إذ تمضي الحياة فحسب بتحسينات محلية (العالم الذي وصفه كوجيف Kojeve منذ عقود بأنّه عالم الغطرسة)، ونهاية العالم دائماً ما توشك أن تكون هنا أيضاً – حين نستمر في ضرب من ضروب عالم النسيان الذي لا ينتهي – نهاية زمن اختبرنا استحالة نهايته (انتهائه). اعتدنا مثل هذا الوضع في الفن (يحتضر منذ أكثر من قرن) والفلسفة (تتخلّى عن نفسها وتتغلّب عليها منذ أيام هيغل حتّى يومنا هذا). وفي كلتا الحالتين، يُفضي الموت إلى إنتاجية استثنائية وانتشار أشكال جديدة كأنّ حقيقة الموت تتمثّل في خلود غريب.

في النتيجة الأمر الوحيد الذي يمكن فعله هنا هو قلب المنظور بأسره: لقد وصلنا إلى النهاية بالفعل لكنّنا لم نلاحظها فحسب. نحن نشبه هرّة في طُرفة رسوم متحرّكة قديمة تمشي فوق هاوية ولا تسقط إلّا حين تلاحظ أنّه ما من أرض تحت قوائمها. يجب أن تتمثّل نقطة انطلاقنا في أنّ نهاية العالم – بمعنىً ما – قد حدثت بالفعل: تخضع مجتمعاتنا بالفعل لرقابة وتحكّم شديدين على الصعيد الرقميّ وتتوالى التغيّرات في بيئتنا بالفعل ويتحرّك الملايين بالفعل. فعلينا أن نترك وراءنا استعارة أنّ الساعة هي "الثانية عشرة ظهراً إلّا خمس دقائق"، فرصتنا الوحيدة للتحرّك ومنع وقوع الكارثة. إنّها الثانية عشر ظهراً وخمس دقائق بالفعل، والسؤال: ما العمل في كوكبة عالمية جديدة بالكامل؟ وهذا بالطبع لا يعني أنّه ينبغي ألّا نكافح لمنع الكوارث التي تنتظرنا. بالعودة إلى طُرفة الرسوم المتحرّكة، يقع وضعنا الحالي في مكان ما بين نهايتين: النهاية الأولى هي ما يحدث حين نمشي من دون وجود أرض تحت أقدامنا، والنهاية الثانية هي ما يحدث حين نسقط فعلياً. نحن نمشي بالفعل فوق هاوية ولقد فقدنا الأرض تحت أقدامنا، لكنّ الطريقة الوحيدة لعدم ملاقاتنا حتفنا – خلافاً للهرّة – هي أن ننظر إلى الهاوية ونتصرّف وفقاً لذلك.

كما لاحظت ألينكا زوبانتشيتش Alenka Zupančič بوضوح، الدليل القاطع على أنّ نهاية العالم البيئية قد حدثت بالفعل هو أنّه أُعيد تطبيعها بالفعل. نتأمل "عقلانياً" باطّراد كيفية تكييف أنفسنا معها، وحتّى الاستفادة منها (نقرأ أنّ أرجاء شاسعة من سيبيريا ستُفتح للزراعة وأنّه يمكنهم بالفعل زراعة الخضراوات في غرينلاند وأنّ ذوبان الجليد في القطب الشماليّ سيجعل طريق نقل البضائع من الصين إلى الولايات المتحدة أقصر بكثير...) تتمثّل إحدى حالات التطبيع النموذجية في ردّ الفعل السائد على عمليات فضح المبلِّغين عن المخالفات – أمثال أسانج ومانينغ Manning وسنودن – الذي لا يمثّل إنكاراً ("موقع WikiLeaks ينشر أكاذيب") بقدر ما يشبه: "نعلم جميعنا أنّ حكوماتنا تقوم بمثل هذه الأمور طوال الوقت، وليس ثمّة مفاجأة هنا!". وهكذا حُيّدت الصدمة الناجمة عن عمليات الكشف بالرجوع إلى حكمة من هم أقوياء

بما يكفي للإبقاء على نظرة رصينة على وقائع الحياة... علينا في مواجهة مثل هذه "الواقعية" أن نبيح لأنفسنا بأن يصدمنا بسذاجة وكلّياً فحش وهول الجرائم التي كشفها WikiLeaks. تكون السذاجة أحياناً خير الفضائل.

الأصوات الرئيسية الداعية إلى إعادة التطبيع هي ما يُدعى "المتفائلين العقلانيين" مثل مات ريدلي Matt Ridley الذي أتحفنا بأخبار جديدة: كان العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين أفضل عقود البشرية إذ يتراجع الفقر في آسيا وأفريقيا ويتناقص التلوّث وما شابه.[177] إن كانت هذه هي الحال، فمن أين يأتي المناخ المتنامي لنهاية العالم؟ أليس حصيلة حاجة مَرَضية ذاتية التوالد للتعاسة؟ حينما يخبرنا المتفائلون العقلانيون بأنّنا نبالغ في خوفنا من المشكلات الصغرى ينبغي أن يكون جوابنا أنّنا على العكس من ذلك لا نخاف بما يكفي. وكما تصوغ ألينكا زوبانتشيتش المفارقة: "لقد بدأت نهاية العالم بالفعل ولكن يبدو أنّنا لا نزال نفضّل الموت بدلاً من السماح لتهديد نهاية العالم بأن يميتنا خوفاً".[178] تتبادل لحظات الهلاك والتوقعات المستكينة بالنهاية مع قدرة التحمّل الجسورة الزائفة ("سنتجاوزها بطريقة ما، لكن لا تفقدوا أعصابكم ولا تصابوا بالذعر").

177 انظر:

Matt Ridley, “We’ve Just Had the Best Decade in Human History. Seriously,” the *Spectator*, December 29, 2019, https://www.spectator.co.uk/2019/12/weve-just-had-the-best-decade-in-human-history-seriously/

178 Alenka Zupančič, *The Apocalypse Is Still Disappointing* (manuscript).

من السهولة أن نرى هنا كيف أنّ التفاؤل العقلانيّ وأنبياء الهلاك ليسا سوى وجهي العملة عينها: يخبرنا الأول أنّ في وسعنا الاسترخاء وأنّه ما من داعٍ للذعر وأنّ الأمور ليست بهذا السوء على وجه الإجمال، والآخرون يخبروننا أنّنا فقدنا كلّ شيء بالفعل وأنّه ليس في وسعنا سوى الاسترخاء والاستمتاع بالمشهد على نحو معاكس. كلاهما يمنعنا من التفكير والفعل ومن اتّخاذ قرار واعتماد خيار. للأسباب المذكورة جميعها في هذا الكتاب، لا تزال الشيوعية هي الاسم الأفضل لهذا الخيار، ليس لأنّ الشيوعية أحد الخيارات الممكنة؛ إنّها الخيار الوحيد. الخيارات الأخرى المعروضة علينا (مثل "إعادة الضبط الكبيرة" التي تدعو إليها الشركات الكبيرة) هي مجرّد وسائل لتغيير شيء ما فلن يتغيّر أيّ شيء في الواقع. حالما نختار الشيوعية سندرك أنّ علينا اختيارها. مع الشيوعية، نختار بحريّة ما يتعيّن علينا فعله وما هو ضروريّ لعمله. هذا هو ما يوصل إليه الادّعاء الهيغليّ القديم بأنّ الحرية ضرورة مسلّم بها: ليس أنّ الشيوعية ستحدث لا محالة – قد لا تحدث وقد ننتهي بعربدة مدمّرة للذات أو برأسمالية شركات لها سمات إقطاعية حديثة – ولكن حالما نختارها سنرى أنّها المَخرج الوحيد.

سلافوي جيجيك

فلسفة الفوضى

هل ينقذ الدمار البشرية؟

"لا يكفّ عن الإبهار"
Daily Telegraph

مكتبة
Telegram Network

دار الساقي

ترجمة
عماد شيحة